

الحكمة والتعليل في أفعال الله

(بين القضاء والقدر)

بحث رسالة تكميلة

تقديم : عبدالله عمر موسى سناكو ae271

إشراف : الدكتور محمد السيد البساطي

المقدمة

بحث رسالة تكميلة عبد الله عمر موسى سناكو ae271

مرحلة الماجستير

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله - صلى الله عليه وآله وسلم تسليماً كثيراً -.

أما بعد، فإن علم العقيدة أشرف العلوم، وأعظمها، وأهمها. وإن من أجلّ النعم وأوفاهها وضوح العقيدة الإسلامية، وموافقتها للفطر القويم، والعقول السليمة، وسلامتها من التناقض والاضطراب واللبس والغموض؛ فألفاظها سلسلة، ومعانيها بينة يفهمها العالم والعامي، والصغير والكبير.

وأدلتها المستقاة من الكتاب والسنة تسبق إلى الأفهام ببادئ الرأي، وأول النظر، ويشترك كافة الخلق في إدراكها؛ فهي مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان، بل كالماء الذي ينتفع به الصبي والرضيع، والرجل القوي والضعيف؛ فأدلة الكتاب والسنة سائغة جلية تقنع العقول، وتسكن النفوس، وتغرس الاعتقادات الصحيحة الجازمة في القلوب.

ألا ترى أن من قدر على الابتداء فهو على الإعادة أقدر ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ سورة الروم: 27، وأن التدبير لا ينتظم في دار واحدة بمُدبرين فكيف في جميع العالم؟! ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ سورة الأنبياء: 22، وأن من خلق علم، ثم خلق كما قال - تعالى - ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ سورة الملك: 14.

فهذه الأدلة وأمثالها تجري مجرى الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي () . هذا وإن باب القدر لمن أعظم أبواب العقيدة، وشأنه شأن غيره من الأبواب الأخرى من حيث الوضوح والبيان، بل إن له شأنًا عجيبيًا؛ لأن عامة الناس أعلم به من المتكلمين والفلاسفة؛ لأنه مسألة بديهية، والبديهي كلما زاد التعمق فيه بعد عن الإدراك (بر)، فالإيمان بالقدر أمر فطري، والعرب في جاهليتها وإسلامها لم تكن تنكر القدر، كما صرح بذلك أحد أئمة اللغة وهو أحمد بن يحيى ثعلب بقوله: «ما في العرب إلا مثبت القدر خيره وشره أهل الجاهلية وأهل الإسلام» (تر).

وإثباتهم للقدر مبثوث في ثنايا أشعارهم وخطبهم - كما سيمر بنا قريباً عند

() أشار إلى هذا المعنى اللطيف ابن الوزير اليماني، انظر «ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان» ص 348.

(بر) أشار إلى هذا المعنى الشيخ محمد رشيد رضا، انظر «منهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة» لتامر متولي ص 586.

(تر) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للالكائي 705-704/4.

الحديث عن أدلة القدر - فهم يثبتون القدر ولا ينكرونه، وإن كان هذا الإثبات قد يشوبه بعض التخبط والجهل في فهم حقيقة القدر.

أهمية موضوع القدر:

من خلال ما مضى يتبين لنا شيء من شأن القدر، وفيما يلي مزيد بيان لأهميته:

1- ارتباطه بالإيمان بالله: فالقدر قدرة الله () والمؤمن به مؤمن بقدره الله، والمكذب به مكذب بقدره الله - عز وجل -.

ثم إنه مرتبط بحكمة الله - عز وجل - وعلمه، ومشيبته، وخلقته.

2- كثرة وروده في أدلة الشرع: فنصوص الكتاب والسنة حافلة ببيان حقيقة القدر، وتجلية أمره، وإيجاب الإيمان به. وهذا ما سيتضح في ثنايا هذا البحث.

3- أنه من الموضوعات الكبرى: التي خاض فيها جميع الناس على اختلاف طبقاتهم وأديانهم؛ والتي شغلت أذهان الفلاسفة، والمتكلمين، وأتباع الطوائف من أهل الملل وغيرهم.

() هذه مقولة للإمام أحمد رحمته الله، انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية 308/8، وطريق

الهجرتين لابن القيم ص70.

4- ارتباط القدر بحياة الناس وأحوالهم: فهو مرتبط بحياتهم اليومية وما فيها من أحداث وتقلبات ليس لهم في كثير منها إرادة أو تأثير.

ولو لم يكن هناك إلا مسألة الحياة والموت، وتفاوت الناس في الأعمال والمواهب، والغنى والفقر، والصحة والمرض، والهداية والإضلال - لكان ذلك كافياً في أن يفكر الإنسان في القدر.

5- كونه أعوصَ أبواب العقيدة: فمع أن باب القدر معلوم بالفطرة - كما مر- وأن نصوص الشرع قد بينته غاية البيان إلا أنه يظل أعوصَ أبواب العقيدة؛ فدقة تفاصيله، وتشعب مسأله، وكثرة الخوض فيه، وتنوع الشبهات المثارة حوله - كل ذلك يوجب صعوبة فهمه، وتعسر استيعابه.

فلا غرو أن يحار الناس في شأنه في القديم والحديث؛ فلقد سلك العقلاء في هذا الباب كل واد، وأخذوا في كل طريق، وتولجوا كل مضيق، وقصدوا إلى الوصول إلى معرفته، والوقوف على حقيقته؛ فلم يرجعوا بفائده، ولم يعودوا بعائده، لأنهم التمسوا الهدى من غير مظانّه، فتعبوا وأتعبوا، وثاروا وتحيروا، وضلوا وأضلوا.

6- ما يترتب على الإيمان به على الوجه الصحيح: فذلك يثمر السعادة في الدنيا والآخرة، ويورث اليقين، ويكسب الأخلاق الفاضلة، والهمم العالية، والإرادات القوية.

7- ما يترتب على الجهل به: فالجهل به، أو فهمه على غير الوجه الصحيح يورث الشقاء، والعذاب في الدنيا والآخرة.

والواقع يشهد بذلك في أمم الكفر؛ إذ يشيع فيها قلة التحمل، والانتحار، والقلق.

وكذلك الحال في أمة الإسلام؛ فما تخلفت في عصورها المتأخرة إلا لأسباب أبرزها جهل كثير من المسلمين، وانحرافهم في باب العقيدة - عموماً - وفي باب القدر - خصوصاً -.

وذلك عندما اتخذ كثير منهم من الإيمان بالقدر مسوغاً واهياً لعجزهم، وانهيارهم، وإخلادهم إلى الأرض، تاركين الأخذ بالأسباب، ناسين أو متناسين أن أقدار الله إنما تجري وفق سنته الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل، ولا تحابي أحداً كائناً من كان.

فعل الأمة الإسلامية تفيق من رقدتها، وتتولى قوامة البشرية، وتأخذ مكانها اللائق بها، وذلك بعودتها إلى عقيدتها الصافية النقية التي هي مصدر مجدها، ومنبع عزها.

هذه بعض الأمور التي تبين أهمية موضوع القدر.

أسباب البحث في الموضوع:

وإن مما دفعني إلى الكتابة في هذا الموضوع أمور منها:

- 1- أهمية هذا الباب - كما مر -.
- 2- أن هذا الموضوع كان يشغل بالي منذ مدة طويلة؛ فكنت أكثر البحث فيه، والقراءة حوله، وكنت أكتب بعض ما أتوصل إليه، وأعرضه على بعض أهل العلم ومن هنا كانت الرغبة في الكتابة في هذا الباب بصورة أشمل وأوسع.

3- الرغبة في تيسير فهم القدر، وتقريبه إلى الأذهان.

4- الرغبة في الإجابة عما يُثار حول هذا الباب من أسئلة تُطرح، وإشكالات تتكرر، وشبهات تُلقى.

هذا ما دفعني للكتابة في باب القدر، فجمعت ما تيسر من متناثره، وحرصت - قدر المستطاع - على إيضاح ما دق من مسائله، مستنيراً بأضواء الكتاب والسنة، مستعيناً عليه بفهم سلف هذه الأمة، مستفيداً مما رقمته يراعة العلماء والباحثين في هذا الباب.

الدراسات السابقة:

فالعلماء الأوائل أودعوا مصنفاتهم الحديث عن القدر، وكان ذلك ضمن أبواب العقيدة الأخرى، كما في صنيع الإمام عبدالله بن أحمد في كتابه السنة، والإمام الآجري في الشريعة، والإمام اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة وغيرهم.

وَقَلَّ أن يفردوا كتاباً يتعلق بالقدر وحده، ومن القليل من ذلك كتابُ القدر للفريابي وهو يعنى - في غالبه - بذكر الآثار المروية في القدر.

ومن ذلك رسائلُ وفتاوى متعددة لشيخ الإسلام ابن تيمية مبنوثة في كثير من كتبه خصوصاً المجلد الثامن من مجموع الفتاوى، وشفاء العليل لابن القيم.

أما في العصور المتأخرة فظهرت كتب في القدر منها الكبير، ومنها الرسائل الصغيرة، ومنها ما يتناول جزئية معينة من هذا الموضوع، ومن الكتب المؤلفة في

ذلك :

- 1- القضاء والقدر للعلامة الشيخ محمد بن عثيمين رحمته الله وهي رسائل صغيرة.
 - 2- القضاء والقدر للشيخ د.عمر الأشقر، وهو كتاب متوسط نافع.
 - 3- القضاء والقدر للشيخ د.عبدالرحمن المحمود، وهو مجلد كبير ويكاد يكون أحسن ما كُتب في هذا الباب.
- وهناك كتب أخرى كثيرة في هذا الباب، ولا يخلو غالبها من ملحوظات.
- أما خطة هذا البحث** فقد اشتملت على هذه المقدمة، وعلى تمهيد، وبابان، وخاتمة، وذلك كما يلي :

المقدمة

وفيها بيان مجمل لموضوع القدر، وأهميته، والسبب من وراء البحث فيه، كما أن فيها بياناً لخطة البحث.

تمهيد

وفيه الحديث عن مسألة حكم البحث في القدر، وتفصيل القول فيها، ومتى يجوز، ومتى لا يجوز، مع توجيه النصوص الواردة في ذلك.

الباب الاول: مسائل وإشكالات حول القدر

وتحته ثلاثة فصول

الفصل الأول: الإيمان بالقدر ومشية العبد واختياره

الفصل الثاني: فعل الأسباب والإيمان بالقضاء والقدر

الفصل الثالث: الاحتجاج بالقدر على فعل المحرمات وترك

الواجبات :

وتحتته بيان لبطلان الاحتجاج بالقدر على هذا النحو من أوجه عديدة، كما أن فيه بياناً للحالة التي يسوغ فيها الاحتجاج بالقدر.

الباب الثاني: الحكمة والتعليل في أفعال الله

وتحتته تمهيد، وأربعة فصول:

تمهيد: وفيه حديث عن مسألة تعليل أفعال الله، وإثبات الحكمة فيها.

الفصل الأول: نسبة الشر إلى الله - تعالى - وحكم ذلك، والحكمة

من إرادة الله لما يجبه.

الفصل الثاني: الحكمة من خلق إبليس، وخلق المصائب والآلام

الفصل الثالث: الحكمة من خلق المعاصي وتقديرها

الفصل الرابع: الرضا بقدر الله، وحكم ذلك

الخاتمة

وفيها خلاصة لأهم ما ورد في البحث

منهج البحث:

أولاً: اقتضت مادة البحث أن يُستخدم في تناوله المنهجان التاريخي والوصفي؛

فالتاريخي يقوم على رصد موضوع القدر، وتتبع تاريخ الانحراف فيه سواء كان

ذلك الانحراف قبل الإسلام أو بعده.

والوصفي وقد تم من خلاله عرض موضوع القدر، وبيان المنهج الصحيح فيه، وكذلك تم عرض أقوال الطوائف المنحرفة في القدر.

ثانياً: حرصت في البحث على:

1- ترقيم الآيات القرآنية وبيان سورها في أعلى الصفحة حتى لا تكثر الهوامش.

2- تخريج الأحاديث النبوية، وبيان ما ذكره أهل الاختصاص في شأنها إن لم تكن في الصحيحين أو أحدهما؛ فإن كانت كذلك اكتفيت بالعزو إليهما أو إلى أحدهما، واكتفيت بالعزو إلى رقم الحديث إذا كان الكتاب الحديثي مرقماً؛ فأكتفي برقمه ووضعه بين قوسين، أما إذا كان غير مرقم فأشير إلى الجزء والصفحة إذا كان ثم أجزاء هكذا على سبيل المثال 20/1، أو إلى رقم الصفحة إذا لم يكن ذا أجزاء هكذا ص 20.

3- العناية بإخراج البحث بحلة قشبية منظمة.

4- العناية بسلامة الأسلوب، وتيسيره، وسيره على قواعد اللغة العربية، والحرص على جعله حالاً بين حالين: بين الوحشي الغريب، والسوقي القريب.

5- مراعاة قواعد الإملاء من علامات ترقيم ونحوها مما ييسر فهم المقصود، وإبعاد اللبس.

5- الترجمة للأعلام غير المشهورين ممن لهم صلة وثيقة بموضوع البحث.

6- الاقتصار على ذكر اسم الكتاب والمؤلف عند أول ذكره إذا لم يكن هناك اشتباه بين الكتب؛ فإذا حُشي اللبس أُعيد ذكر المؤلف، أما تاريخ الطبقات

ورقمها وما جرى مجرى ذلك فيرجى إلى فهرس المصادر والمراجع.

7- إلحاق البحث بالفهارس :

أ- فهرس الآيات القرآنية

ب- فهرس الأحاديث والآثار

د - فهرس الأعلام المترجم لهم

ز- فهرس الموضوعات

وفي الختام أتوجه بالشكر إلى الله - عز وجل - على ما يسر وأعان ، وأسأله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يغفر لي ما كان فيه من زلل .

وبعد شكر الله - عز وجل - أتوجه بالدعاء لكل من أعانني في تنمة بحثي بفكره ومشورة ورأيه وأفاد بملحوظاته القيمة ؛ فأسأل الله أن يغفر لهم وأن يجزيهم عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

ثم أتوجه بالشكر الجزيل لجامعة المدينة العالمية بماليزيا التي تكرمت بقبول الالتحاق بها ، وأخص بالشكر كلية الشريعة الإسلامية .

وأشكر فضيلة أستاذي الشيخ الدكتور المشرف محمد السيد البساطي الذي تكرم بقبول الإشراف على هذا البحث ، وأفادني بملحوظاته ، فجزاه الله خير الجزاء ، وبارك في علمه وعمره .

والشكر موصول لمن راجع هذه الرسالة وأمدني بملحوظاته .

كما أشكر كل من أعان على إخراج هذه الرسالة من الإخوة الكرام ،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد .

بجث رسالة تكملة عبد الله عمر موسى سناكو ae271

تمهيد

مسألة في حكم الحديث عن القدر

قبل الدخول في تفاصيل الحديث عن القضاء - يحسن الوقوف عند مسألة أُثيرت قديماً، وتثار حديثاً، مفادها: أنه لا ينبغي الحديث في مسائل القدر مطلقاً، بحجة أن ذلك يبعث على الشك والحيرة، وأن هذا الباب زلّت به أقدام، وضلّت به أفهام.

والكلام هكذا - على إطلاقه - غير صحيح، لأمر عديدة منها:

1- أن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان: ولا يتم إيمان العبد إلا به، فكيف يُعرف إذا لم يُتحدث عنه، ويبيّن للناس أمره؟!

2- أن القرآن الكريم مليءٌ بذكر القدر وتفصيله: والله - عز وجل - أمرنا بتدبر القرآن وعقله، كما في قوله - تعالى - : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ سورة ص: 29، وقوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ سورة محمد: 24.

فما الذي يخرج الآيات التي تتحدث في القدر عن هذا العموم؟!

3- أن الإيمان بالقدر ورد في أعظم حديث في الإسلام: وهو حديث جبريل - عليه السلام - وكان ذلك في آخر حياة النبي ﷺ وقد قال ﷺ في آخر الحديث: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم» () .

فمعرفة - إذا - من الدين ، وهي واجبة ولو على سبيل الإجمال.

4- أن الصحابة سألوا النبي ﷺ عن أدق الأمور في القدر: كما جاء في حديث جابر في صحيح مسلم عندما جاء سراقه بن مالك بن جعشم إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله بين لنا ديننا كأننا خلقنا الآن ، فيما العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت المقادير؟ أم فيما نستقبل؟ قال: «لا ، بل فيما جفت به الأقلام ، وجرت المقادير» قال: ففيم العمل؟ فقال: «اعملوا فكل ميسر».

وفي رواية «كل عامل ميسر لعمله» () .

5- أن الصحابة علموا تلاميذهم - من التابعين - ذلك: وسألوهم؛ ليختبروهم ، وينظروا في فهمهم لهذا الباب ، كما جاء في صحيح مسلم أن أبا الأسود الدؤلي قال: قال لي عمران بن الحصين: «أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه ، أشيء قُضي عليهم ، ومضى عليهم من قدر ما سبق؟ أو فيما يُستقبلون به مما أتاهم به نبههم ، وثبتت الحجة عليهم؟

فقلت: بل شيء قُضي عليهم.

قال: فقال: أفلا يكون ظلماً؟

قال: ففرغت من ذلك فرعاً شديداً ، قلت: كل شيء خلق الله ، وملك يده ،

فلا يُسأل عما يفعل وهم يسألون.

فقال لي: يرحمك الله، إني لم أُرِدْ بما سألتك إلا لأَحْزُرُ (عقلك) (ب).

6- أن أئمة السلف الصالح من العلماء كتبوا في هذا الباب: بل وأطنبوا فيه،

فلو قلنا بمنع الحديث عن القدر لضللناهم، وسَفَهْنَا أحلامهم.

7- لو تركنا الحديث عن القدر لجهل الناس به: ولربما انفتح الباب لأهل

البدعة والضلالة؛ ليروجوا باطلهم، ويلبسوا على المسلمين دينهم.

8- فوات العلم والخير: فلو تركنا الحديث عن القدر، وعن ثمراته لفاتنا علم

غزير، وخير كثير.

فإن قيل: كيف نجتمع بين هذا وبين ما ورد في ذم الخوض في القدر، كما في

قوله ﷺ كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكر

النجوم فأمسكوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا» (ت).

(1) الحَزْرُ: التقدير، والحَدْسُ، وإعمال الرأي، والمراد هنا: أنني أردت أن أمتحن عقلك، وأقدّر ما

وصلت إليه وأعمل رأيي في معرفة مدى فهمك. انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس 55/2، ولسان

العرب لابن منظور 185/4-186، وصحيح مسلم بشرح النووي 199/16.

(2) مسلم باب القدر (2650).

(3) أخرجه الطبراني في الكبير، 243/10 (10448)، وأبو نعيم في الحلية، 108/4، وقال

أبونعيم: «غريب من حديث الأعمش تفرد به عنه مسهر».

= وقال الهيثمي في مجمع الزوائد 202/7: «وفيه مسهر بن عبد الملك وثقه ابن حبان وغيره وفيه خلاف

وبقية رجاله رجال الصحيح».

وقال العراقي في المغني عن حمل الأسفار 41/1: «إسناده حسن».

وكذلك ما ورد أن النبي ﷺ غضب غضباً شديداً، عندما خرج على أصحابه يوماً وهم يتنازعون في القدر، حتى احمرَّ وجهه، حتى كأنما فُقيء في وجنتيه حبُّ الرمان، فقال: «أبهذا أمرتم؟ أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما أهلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر؛ عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه» (١).

فالجواب عن ذلك: أن النهي الوارد مُنصَّبٌ على الأمور الآتية:

1- الخوض في القدر بالباطل وبلا علم ولا دليل: قال - تعالى - ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ سورة الإسراء: 36، وقال عن المجرمين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ، قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ، وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمَسْكِينِ، وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ

وحسنه ابن حجر في الفتح 486/11، ورمز لحسنه السيوطي في الجامع الصغير فيض القدير 348/1، وقال الألباني في صحيح الجامع رقم (545): «صحيح» وانظر السلسلة الصحيحة 42/1 (34).
وقال المباركفوري في تحفة الأحوذى 336/6: «إسناده حسن».
وهذا الحديث جاء من حديث ثوبان رضي الله عنه بلفظه عند الطبراني في الكبير 96/2 (1427)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد 202/7: «وفيه يزيد بن ربيعة وهو ضعيف».
() أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة من كتاب القدر باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر، (2133) وقال: «وفي الباب عن عمر وعائشة وأنس، وهذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث صالح المري، وصالح المري له غرائب ينفرد بها لا يتابع عليها».
وقال الألباني في صحيح سنن الترمذي (1732-2231): «حسن».
وله شاهد من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه بلفظ: «لا تجالسوا أهل القدر ولا تفتاحوهم» أخرجه أحمد، 30/1، وأبو داود (4710) و(4720)، والحاكم، 85/1.

الخَائِضِينَ ﴿ سورة المدثر: 42-45.

2- الاعتماد في معرفة القدر على العقل البشري القاصر: بعيداً عن هدي الكتاب والسنة؛ ذلك أن العقل البشري لا يستقل بمعرفة ذلك على وجه التفصيل؛ لأن له حدوداً وطاقاتٍ يجب أن يقف عندها^(أ).

3- ترك التسليم والإذعان لله - تعالى - في قدره: ذلك لأن القدر غيب، والغيب مبناه على التسليم.

4- البحث عن الجانب الخفي في القدر: الذي هو سر الله في خلقه، والذي لم يطلع عليه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وذلك مما تتقاصر العقول عن فهمه ومعرفته^(ب).

5- الأسئلة الاعتراضية التي لا يجوز إيرادها: كمن يقول مُتَعَتِّتًا: لماذا هدى الله فلاناً، وأضل فلاناً؟ ولماذا كلّف الله الإنسان من بين سائر المخلوقات؟ ولماذا أغنى الله فلاناً، وأفقر فلاناً؟ وهكذا...

أما «من سأل مستفهماً فلا بأس به؛ فشفاء العي السؤال، أما من سأل متعنتاً - غير متفقه ولا متعلم - فهو الذي لا يحل قليل سؤاله ولا كثيره»^(ت).

(أ) انظر الإبانة لابن بطة العكبري 421/1-422.

(ب) انظر الدين الخالص لصديق حسن 171/3.

(ت) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص 262، وانظر الاختلاف في اللفظ والرد

على الجهمية والمشبهة لابن قتيبة ص 35، وشرح السنة للبرهاري ص 36.

6- التنازع في القدر: الذي يؤدي إلى اختلاف الناس فيه ، وافتراقهم في شأنه ، فهذا مما نهينا عنه.

ولا يدخل في التنازع المذموم منازعة الفرق الضالة ، وردُّ شبههم ، ودحض حججهم؛ لأن في ذلك إحقاقاً للحق ، وإبطالاً للباطل .
ومن هنا يتبين لنا أن النهي عن الحديث في القدر على إطلاقه غير صحيح ، وإنما النهي كان عن الأمور الآتفة الذكر .

أما البحث فيما يستطيع العقل البشري أن يجول فيه ، ويفهمه من منطلق النصوص - كالبحث في مراتب القدر ، وأقسام التقدير ، وخلق أفعال العباد ، إلى غير ذلك من مباحث القدر - فهذا ميسرٌ واضح لا يمنع من البحث فيه ، على أنه لا يستطيع كل أحد أن يفهمها على وجه التفصيل ، إلا أن هناك من يعلمها ويكشف ما فيها .

ومما يؤيد ذلك - من أن النهي ليس على إطلاقه - أنه ورد في الحديث السابق ، حديث ابن مسعود ، مع الأمر بالإمساك عن القدر - الإمساك عن الصحابة .
والإمساك عن الصحابة إنما المقصود به الإمساك عما شجر بينهم ، والكف عن ذكر مساوئهم ، وتنقصهم ، وثلبهم .

أما ذكر محاسنهم ، والثناء عليهم فهذا أمر محمود بلا أي خلاف؛ فقد أثنى الله عليهم في القرآن الكريم ، وزكاهم ، وكذلك الرسول ﷺ .

ومما يؤيد ذلك - أيضاً - أن سبب غضب النبي ﷺ كما في الحديث السابق - حديث الترمذي - إنما هو بسبب تنازع الصحابة في القدر .

« وهذا يعني أن الكلام في القدر، أو البحث فيه بالمنهج العلمي الصحيح غير محرم أو منهي عنه، وإنما الذي نهى عنه الرسول ﷺ هو التنازع في القدر» (١).

وخلاصة القول في هذه المسألة: أن الحديث عن القدر لا يفتح بإطلاق، ولا يغلق بإطلاق؛ فإن كان الحديث بحق فلا يمنع ولا ينهى عنه، بل قد يجب، وإن كان باطلاً فيمنع، وينهى عنه.

() القضاء والقدر في الإسلام، د. فاروق الدسوقي 368/1.

الباب الأول

مسائل وإشكالات حول القدر

وتحتة ثلاثة فصول :

الفصل الأول : الإيمان بالقدر ومشية العبد واختياره

الفصل الثاني : فعل الأسباب والإيمان بالقضاء والقدر

الفصل الثالث : الاحتجاج بالقدر

الفصل الثالث : مسألة الهداية والإضلال

الفصل الرابع : التوفيق بين استئثار الله بعلم ما في الأرحام وبين علم

الأطباء بذكورة الجنين في الرحم من أنوثته؟

الفصل الأول

الإيمان بالقدر ومشئئة العبد واختياره

الإيمان بالقدر - على ما مرَّ - لا ينافي أن يكون للعبد مشئئة في أفعاله الاختيارية، وأن يكون له قدرة عليها، فقد دل على ذلك الشرع والواقع.

أما الشرع: فالأدلة على ذلك كثيرة جداً ومنها قوله - تعالى -: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾ سورة النبأ: 39، وقوله: ﴿فَأْتُوا حَرَّتِكُمْ أَنِّي سَتِّمُ﴾ سورة البقرة: 223، وقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ سورة البقرة: 286، وقوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ سورة آل عمران: 133، وقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ سورة الكهف: 29.

أما الواقع: فكل إنسان يعلم أن له مشئئة، وقدرة يفعل بهما ويترك، ويفرق بين ما يقع بإرادته، كالمشي، وما يقع بغير إرادته كالارتعاش ().

لكن مشئئته، وقدرته واقعتان بمشيئة الله وقدرته، لقوله - تعالى -: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ، وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ سورة

() انظر منهاج السنة، لابن تيمية 3/109-112، والتبيان في أقسام القرآن لابن القيم ص45 و166-169، وانظر رسائل في العقيدة لابن عثيمين 37-38، والقضاء والقدر لابن عثيمين 15-17.

التكوير: 28-29.

وتوضيح ذلك كما قال العلامة ابن سعدي (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) : « أن العبد إذا صلى، وصام، وعمل الخير، أو عمل شيئاً من المعاصي - كان هو الفاعل لذلك العمل الصالح، والعمل السيئ.

وفعله المذكور - بلا ريب - واقع باختياره، وهو يحس - ضرورة - أنه غير مجبور على الفعل أو الترك، وأنه لو شاء لم يفعل.

وكما أن هذا هو الواقع، فهو الذي نص الله عليه في كتابه، ونص عليه رسوله ﷺ حيث أضاف الأعمال صالحها، وسيئها إلى العباد، وأخبر أنهم هم الفاعلون لها، وأنهم محمودون عليها إذا كانت صالحة، ومثابون عليها، ومذمومون إذا كانت سيئة، ومعاقبون عليها.

فقد تبين بهذا واتضح أنها واقعة منهم وباختيارهم، وأنهم إن شاءوا فعلوا، وإن شاءوا تركوا، وأن هذا الأمر ثابت عقلاً وحساً، وشرعاً، ومشاهدة.

() هو الشيخ العلامة المحقق أبو عبدالله عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله بن ناصر آل سعدي التميمي، ولد في عنيزة في القصيم سنة 1307هـ، وتوفي سنة 1376هـ، ترك جمعاً غفيراً من التلاميذ على رأسهم الشيخ محمد بن عثيمين والشيخ عبدالله بن بسام والشيخ عبدالعزيز السلطان - رحمهم الله - والشيخ عبدالله بن عقيل وغيرهم كثير، وترك مصنفات نافعة منها: تفسيره، وخلاصة التفسير، والقواعد الحسان، والفتاوى، وغيرها.

انظر «الشيخ عبدالرحمن السعدي مفسراً» للشيخ عبدالله بن سابح الطيار، و«علامة القصيم» للشيخ الدكتور عبدالله بن محمد الطيار، و«الشيخ عبدالرحمن السعدي وجهوده في العقيدة» للشيخ الدكتور عبدالرزاق العباد.

ومع ذلك إذا أردت أن تعرف أنها - وإن كانت كذلك - واقعة منهم، كيف تكون داخلة في القدر؟ وكيف تشملها المشيئة؟ فيقال: بأي شيء وقعت هذه الأعمال الصادرة من العباد خيرها وشرها؟ فيقال: بقدرتهم، وإرادتهم. والذي خلق ما تقوم به الأفعال هو الذي خلق الأفعال؛ فهذا الذي يحل الإشكال، ويتمكن العبد أن يعقل بقلبه اجتماع القدر، والقضاء، والاختيار. ومع ذلك فهو - تعالى - أمد المؤمنين بأسباب، وأطاف، وإعانات متنوعة، وصرّف عنهم الموانع، كما قال ﷺ: «وأما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة» (1).

وكذلك خذل الفاسقين، ووكّلهم إلى أنفسهم؛ لأنهم لم يؤمنوا به، ولم يتوكلوا عليه، فولّاهم ما تولوه لأنفسهم» (2).

(1) رواه مسلم (2647).

(2) بر التنبّهات اللطيفة ص 82-83، وانظر لمعة الاعتقاد، لابن قدامة، ص 22، وانظر شرح الواسطية، للهراش، ص 228، وانظر صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان، للشيخ محمد بشير السهواني الهندي ص 239-243.

الفصل الثاني

فعل الأسباب والإيمان بالقضاء والقدر

فعل الأسباب لا ينافي الإيمان بالقدر، بل إن مباشرتها من تمام الإيمان بالقضاء والقدر.

«ولهذا يجب على العبد - مع الإيمان بالقدر - الاجتهاد في العمل، والأخذ بأسباب النجاة، والالتجاء إلى الله - تعالى - بأن ييسر له أسباب السعادة، وأن يعينه عليها» () .

ونصوص الكتاب والسنة حافلة بالأمر باتخاذ الأسباب المشروعة في مختلف شؤون الحياة؛ فقد أمرت بالعمل، والسعي في طلب الرزق، واتخاذ العدد لمواجهة الأعداء، والتزود للأسفار، وغير ذلك.

قال - تعالى - : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ سورة الجمعة: 10، وقال: ﴿ فَاْمَشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ سورة الملك: 15، وقال: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ سورة الأنفال: 60، وأمر المسافرين للحج بالتزود، فقال: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ سورة البقرة: 197، وأمر بالدعاء والاستعانة، فقال: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ سورة غافر: 60، وقال: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ سورة البقرة: 45.

() شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، للشيخ عبدالله الغنيمان 629/2.

وأمر باتخاذ الأسباب الشرعية التي تؤدي إلى رضوانه، وجنته، كالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج.

وحياة الرسول ﷺ وأصحابه، بل حياة المسلمين جميعاً، والسائرين على نهجهم - كلها شاهدة على أخذهم بالأسباب، والجد، والاجتهاد^().

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمته الله: «ويظن كثير من الناس أن إثبات الأسباب ينافي الإيمان بالقضاء والقدر، وهذا غلط فاحش جداً، وهو عائد على القدر بالإبطال، وهو إبطال - أيضاً - للحكمة.

وكان هذا الظن يقول ويعتقد أن الإيمان بالقدر هو اعتقاد وجود الأشياء بدون أسبابها الشرعية والقدرية، وهذا نفي للوجود لها، فإنها - كما ذكرنا - أن الله ربط الكون بعبئه ببعض، ونظم بعبئه ببعض، وأوجد بعبئه ببعض، فهل تقول أيها الظن جهلاً: إن الأولى إيجاد البناء من دون بنیان؟ وإيجاد الحبوب، والثمار، والزروع من دون حرث وسقي؟ وإيجاد الأولاد والنسل من دون نكاح؟ وإدخال الجنة من دون إيمان وعمل صالح؟ وإدخال النار من دون كفر ومعصية؟

بهذا الظن أبطلت القدر، وأبطلت معه الحكمة، أما علمت أن الله بحكمته، وكمال قدرته جعل للمسببات أسباباً؟ وللمقاصد طرقاً ووسائل تحصل بها؟ وقرر هذا في الفطر، والعقول، كما قرره في الشرع، وكما نفذه في الواقع؛ فإنه أعطى كل شيء خلقه اللائق به، ثم هدى كل مخلوق إلى ما خلق له من أصناف

() انظر القضاء والقدر، للأشقر ص 83-84.

السعي، والحركة، والتصرفات المتنوعة، وبنى أمور الدنيا والآخرة على ذلك النظام البديع العجيب الذي شهد - أولاً - لله بكمال القدرة، وكمال الحكمة، وأشهد العباد - ثانياً - أن بهذا التنظيم، والتيسير، والتصريف وجه العاملين إلى أعمالهم، ونشطهم على أشغالهم».

إلى أن قال ﷺ: «فطالبُ الآخرة إذا علم أنها لا تنال إلا بالإيمان والعمل الصالح وترك ضدها - جدَّ واجتهد في تحقيق الإيمان، وكثرت تفاصيله النافعة، واجتهد في كل عمل صالح يوصله إلى الآخرة، واجتنب في مقابلة ذلك الكفر، والعصيان، وبادر للتوبة النصوح من كل ما وقع منه من ذلك.

وصاحب الحرث إذا علم أنه لا يُنال إلا بجرث وسقي وملاحظة تامة جد واجتهد في كل وسيلة تنمي حراثته، وتكملها، وتدفع عنها الآفات.

وصاحب الصناعة إذا علم أن المصنوعات على اختلاف أنواعها، ومنافعها لا تحصل إلا بتعلم الصناعة، وإتقانها، ثم العمل بها جد في ذلك.

ومن أراد حصول الأولاد، أو تنمية مواشيه عمل وسعى في ذلك، وهكذا جميع الأمور» () .

() (الرياض الناضرة، 125-126، وانظر شفاء العليل ص50-53 والشيخ عبدالرحمن ابن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة د. عبدالرزاق العباد من 86-89، وانظر تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن لابن سعدي ص12، والقضاء والقدر لأبي الوفاء محمد درويش ص53-61، والأجوبة المفيدة لمهمات العقيدة للشيخ عبدالرحمن الدوسري ص118-124، والتوكل على الله وعلاقته بالأسباب د. عبدالله بن عمر الدميحي ص163-194.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وإذا ترك العبد ما أمر به متكلاً على الكتاب كان ذلك من المكتوب المقدر الذي يصير به شقياً، وكان قوله ذلك بمنزلة من يقول: أنا لا أكل، ولا أشرب؛ فإن كان الله قضى بالشبع والريِّ حصل، وإلا لم يحصل، أو يقول: لا أجامع امرأتي فإن كان الله قضى لي بولد، فإنه يكون.

وكذلك من غلط فترك الدعاء، أو ترك الاستعانة، والتوكل ظاناً أن ذلك من مقامات الخاصة، ناظراً إلى القدر، فكل هؤلاء جاهلون ضالون، ويشهد لهذا ما رواه مسلم في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت، كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان» (1).

فأمره بالحرص على ما ينفعه، والاستعانة بالله، ونهاه عن العجز الذي هو الاتكال على القدر، ثم أمره إذا أصابه شيء ألا ييأس على ما فاتته، بل ينظر إلى القدر، ويسلم الأمر لله؛ فإنه هنا لا يقدر على غير ذلك، كما قال بعض العقلاء: الأمور أمران: أمر فيه حيلة، وأمر لا حيلة فيه، فما فيه حيلة لا يعجز عنه، وما لا حيلة فيه لا يجزع منه» (2).

ومما يقال لهؤلاء الذين يتركون العمل اعتماداً على القدر - إن الذي قال: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف

(1) رواه مسلم (2664).

(2) بر) مجموع الفتاوى، 284/8-285، وانظر السنن الإلهية، د.عبدالكريم زيدان ص 21-33.

سنة» () ، والذي قال: «ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة أو النار» (بر) هو الذي قال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» (تر) ، ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ سورة البقرة: 85.

() رواه مسلم (2653).

(بر) رواه البخاري (1362 و 4945)، ومسلم (2647).

(تر) رواه مسلم (2647).

الفصل الثالث

الاحتجاج بالقدر على فعل المحرمات وترك الواجبات

الإيمان بالقدر لا يمنح العاصي حجة على ما ترك من الواجبات، أو فعلَ من المعاصي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وليس لأحد أن يحتج بالقدر على الذنب باتفاق المسلمين، وسائر أهل الملل، وسائر العقلاء؛ فإن هذا لو كان مقبولاً لأمكن كل أحد أن يفعل ما يخطر له من قتل النفوس، وأخذ الأموال، وسائر أنواع الفساد في الأرض، ويحتج بالقدر.

ونفس المحتجّ بالقدر إذا اعتدي عليه، واحتج المعتدي بالقدر لم يقبل منه، بل يتناقض، وتناقض القول يدل على فساده، فالاحتجاج بالقدر معلوم الفساد في بداية العقول» () .

وبما أن هذا الأمر مما يعمّ به البلاء فهذا إيراد لبعض الأدلة الشرعية والعقلية، والواقعية التي يتضح من خلالها بطلان الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي أو ترك الطاعات (ب).

() مجموع الفتاوى 179/8، وانظر اقتضاء الصراط المستقيم 858/2-859.

(بر) انظر منهاج السنة النبوية، 78-65/3، وانظر مجموع الفتاوى 268-262/8، وإيقاظ الفكرة لمراجعة الفطرة للصنعاني ص306، ورسائل في العقيدة 38-39، وانظر لمعة الاعتقاد بشرح الشيخ محمد ابن عثيمين 93-95.

1- قال الله - تعالى - : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ سورة الأنعام: 148 ، فهؤلاء المشركون احتجوا بالقدر على شركهم ، ولو كان احتجاجهم مقبولاً صحيحاً ما أذاقهم الله بأسه .

ولهذا قال الله لهم : ﴿ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ أي هل عندكم دليل صحيح ، فتخرجوه لنا؛ لننظر فيه ، ونتدبره .

والمقصود من هذا التبكيت لهم؛ لأنه قد علم أنه لا علم عندهم يصلح للحجة ، ويقوم به البرهان ، ثم أوضح لهم أنهم ليسوا على شيء من العلم ، وأنهم إنما يتبعون الظنون ، التي هي محل الخطأ ، ومكان الجهل () .

2- قال - تعالى - : ﴿ رُسُلًا مَبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ سورة النساء: 165 .

فلو كان الاحتجاج بالقدر على المعاصي سائغاً لما كان هناك داعٍ لإرسال الرسل؛ فلم يبق للخلق على الله حجة بعد إرساله الرسل تترى يبينون للناس أمر دينهم ، ومراضى ربهم (بر) .

3- أن الله أمر العبد ونهاه ، ولم يكلفه إلا ما يستطيع ، قال - تعالى - : ﴿ فَاتَّقُوا

() انظر فتح القدير للشوكاني 216/2 .

(بر) انظر تفسير السعدي 218/2 .

اللَّهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴿ سورة التغابن: 16 ، وقال: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ سورة البقرة: 286.

ولو كان العبد مجبراً على الفعل لكان مكلفاً بما لا يستطيع الخلاص منه ، وهذا باطل ، ولذلك إذا وقعت منه المعصية بجهل ، أو نسيان ، أو إكراه - فلا إثم عليه لأنه معذور.

4- أن القدر سرٌّ مكتوم ، لا يعلمه أحد من الخلق إلا بعد وقوعه ، وإرادة العبد لما يفعله سابقة لفعله ، فتكون إرادته للفعل غير مبنية على علم بقدر الله ، فادعائه أن الله قدّر عليه كذا وكذا ادعاءً باطل ؛ لأنه ادعاءٌ لعلم الغيب ، والغيب لا يعلمه إلا الله ، فحجته إذا داحضة؛ إذ لا حجة للمرء فيما لا يعلمه.

5- أننا لو سلمنا للمحتج بالقدر على الذنوب لعطلنا الشرائع.

6- لو كان الاحتجاج بالقدر - على هذا النحو - حجة لقبول من إبليس الذي قال: ﴿ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ سورة الأعراف: 16.

7- ولو كان حجة هؤلاء مقبولة - أيضاً - لتساوى فرعون عدو الله ، مع موسى كليم الله - عليه السلام -.

8- الاحتجاج بالقدر على الذنوب والمعائب تصحيح لمذهب الكفار ، وهذا لازم لهذا المحتج ، لا ينفك عنه.

9- ولو كان حجة لاحتج به أهل النار ، إذا عاينوها ، وظنوا أنهم مواقعوها ، كذلك إذا دخلوها ، وبدأ توبيخهم وتقريعهم ، هل يحتجون بالقدر على معاصيهم وكفرهم؟

الجواب: لا؛ بل إنهم يقولون كما قال - عز وجل - عنهم: ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِيبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾ سورة إبراهيم: 44، ويقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ سورة المؤمنون: 106، وقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ سورة الملك: 10، وقالوا: ﴿لَمْ نَكُ مِنْ الْمُصَلِّينَ﴾ سورة المدثر: 43، إلى غير ذلك مما يقولون.

ولو كان الاحتجاج بالقدر على المعاصي سائغاً لاحتجوا به؛ فهم بأمس الحاجة إلى ما ينقذهم من النار.

10- وما يردُّ هذا القول - أيضاً - أننا نرى الإنسان يحرص على ما يلائمه في أمور دنياه حتى يدركه، ولا يعدل عنه إلى ما لا يلائمه ثم يحتج على عدوله بالقدر.

فلماذا يعدل عما ينفعه في أمور دينه إلى ما يضره ثم يحتج بالقدر؟!

وإليك مثلاً يوضح ذلك: لو أراد إنسان السفر إلى بلد، وهذا البلد له طريقان أحدهما آمن مطمئن، والآخر كله فوضى واضطراب، وقتل، وسلب، فأيهما سيسلك؟

لا شك أنه سيسلك الطريق الأول، فلماذا لا يسلك في أمر الآخرة طريق الجنة دون طريق النار؟

11- وما يمكن أن يرد به على هذا المحتج - بناء على مذهبه - أن يقال له: لا تتزوج؛ فإن كان الله قد قضى لك بولد فسيأتيك، وإلا فلن، ولا تأكل ولا تشرب؛ فإن قدر الله لك شعباً وريراً فسيكون، وإلا فلن، وإذا هاجمك سبعٌ ضارٌّ

فلا تفر منه؛ فإن قدر الله لك النجاة فستنجو، وإن لم يقدرها لك فلن ينفعك الفرار، وإذا مرضت فلا تتداو؛ فإن قدر الله لك شفاءً شفيت، وإلا فلن ينفعك الدواء.

فهل سيوافقنا على هذا القول أم لا؟ إن وافقنا علمنا فساد عقله، وإن خالفنا علمنا فساد قوله، وبطلان حجته.

12- المحتج بالقدر على المعاصي شبه نفسه بالمجانين، والصبيان؛ فهم غير مكلفين، ولا مؤاخذين، ولو عومل معاملتهم في أمور الدنيا لما رضي.

13- لو قبلنا هذا الاحتجاج الباطل لما كان هناك حاجة للاستغفار، والتوبة، والدعاء، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

14- لو كان القدر حجة على المعائب والذنوب لتعطلت مصالح الناس، ولعمت الفوضى، ولما كان هناك داعٍ للحدود، والتعزيرات، والجزاءات؛ لأن المسيء سيحتج بالقدر، ولما احتجنا لوضع عقوبات للظلمة، وقطاع الطرق، ولا إلى فتح المحاكم، ونصب القضاة؛ بحجة أن كل ما وقع إنما وقع بقدر الله، وهذا لا يقول به عاقل.

15- أن هذا المحتج بالقدر الذي يقول: لا نؤاخذ؛ لأن الله كتب ذلك علينا؛ فكيف نؤاخذ بما كتب علينا؟

يُقال له: إننا لا نؤاخذ على الكتابة السابقة، إنما نؤاخذ بما فعلناه، وكسبناه، فلسنا مأمورين بما قدره الله لنا، أو كتبه علينا، وإنما نحن مأمورون بالقيام بما يأمرنا به؛ فهناك فرق بين ما أريد بنا، وما أريد منا، فما أَرَادَهُ اللهُ بنا طواه عنا،

وما أَرادَه منه أمرنا بالقيام به.

ومما تجدر الإشارة إليه - أن احتجاج كثير من هؤلاء ليس ناتجاً عن قناعة وإيمان، وإنما هو ناتج عن نوع هوى ومعاودة؛ ولهذا قال بعض العلماء فيمن هذا شأنه: «أنت عند الطاعة قدرى؛ وعند المعصية جبى، أي مذهب وافق هواك تمذهبت به» () .

يعني أنه إذا فعل الطاعة نسب ذلك إلى نفسه، وأنكر أن يكون الله قدر ذلك له، وإذا فعل المعصية احتج بالقدر.

وبالجملة فإن الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي، أو ترك الطاعات احتجاج باطل في الشرع، والعقل، والواقع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله عن المحتجين بالقدر: «هؤلاء القوم إذا أصروا على هذا الاعتقاد كانوا أكفر من اليهود والنصارى» (بر).

الصورة الجائزة المسوغة للاحتجاج بالقدر:

يسوغ الاحتجاج بالقدر عند المصائب التي تحل بالإنسان كالفقر، والمرض، وفقد القريب، وتلف الزرع، وخسارة المال، وقتل الخطأ، ونحو ذلك؛ فهذا من تمام الرضا بالله رباً، فالاحتجاج إنما يكون على المصائب، لا المعائب، «فالسعيد

() مجموع الفتاوى 107/8.

(بر) مجموع الفتاوى 262/8.

يستغفر من المعائب، ويصبر على المصائب، كما قال - تعالى - : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ سورة غافر: 55.

والشقي يجزع عند المصائب، ويحتج بالقدر على المعائب» () .

ويوضح ذلك المثال الآتي: لو أن رجلاً قتل آخر عن طريق الخطأ، ثم لومه من لومه، واحتج القاتل بالقدر، لكان احتجاجه مقبولاً، ولا يمنع ذلك من أن يؤاخذ.

ولو قتل رجلٌ رجلاً عن طريق العمد، ثم قرع القاتل، ووبخ على ذلك، ثم احتج بالقدر لم يكن الاحتجاج منه مقبولاً؛ ولهذا حجَّ آدم موسى - عليهما السلام - كما في قوله ﷺ في محابتهما: «احتج آدم موسى، فقال له موسى: أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة؟ فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، ثم تلومني على أمر قد قدر عليّ قبل أن أخلق؟ فحجَّ آدم موسى» (بر).

فآدم - عليه السلام - لم يحتج بالقدر على الذنب كما يظن ذلك بعض الطوائف، وموسى - عليه السلام - لم يلُمَّ آدم على الذنب؛ لأنه يعلم أن آدم استغفر ربه وتاب، فاجتباه ربه، وتاب عليه، وهداه، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

() مجموع الفتاوى 454/8، وانظر اقتضاء الصراط المستقيم 857/2-858.

(بر) أخرجه مسلم (2652).

ولو أن موسى لام آدم على الذنب لأجابه: إنني أذنبت فتبت، فتاب الله عليّ، ولقال له: أنت يا موسى - أيضاً - قتلت نفساً، وألقيت الألواح إلى غير ذلك، إنما احتج موسى بالمصيبة فحجّه آدم بالقدر (ج).

«فما قدر من المصائب يجب الاستسلام له؛ فإنه من تمام الرضا بالله ربّاً، أما الذنوب فليس لأحد أن يُذنب، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب، فيتوب من المعائب، ويصبر على المصائب» (ب).

وممن يسوغ له الاحتجاج بالقدر التائب من الذنب، فلو لامه أحد على ذنب تاب منه لساغ له أن يحتج بالقدر.

فلو قيل لأحد التائبين: لم فعلت كذا وكذا؟ ثم قال: هذا بقضاء الله وقدره، وأنا تبت واستغفرت، لقبّل منه ذلك الاحتجاج (د).

ثم إنه لا يسوغ لأحد أن يلوم التائب من الذنب؛ فالعبرة بكمال النهاية، لا بنقص البداية.

() انظر مجموع الفتاوى 178/8، ومنهاج السنة 81-78/3، والاحتجاج بالقدر لابن تيمية ص 18-22، والفرقان لشيخ الإسلام ص 103-105، والتدمرية ص 230-231، والآداب الشرعية لابن مفلح 260-258/1، والبداية والنهاية لابن كثير 87-83/1، وإيقاظ الفكرة لمراجعة الفطرة للصنعاني ص 395-377.

(بر) شرح الطحاوية ص 147، وانظر الفتاوى الكبرى لابن تيمية 163/5، والتدمرية ص 231، وانظر المسائل التي لخصها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب من فتاوى ابن تيمية ص 34.

(تر) انظر شفاء العليل ص 35، وانظر القضاء والقدر، لأسعد محمد الصاغري ص 24،

وتقريب التدمرية لابن عثيمين ص 115.

الباب الثاني

الحكمة والتعليل في أفعال الله

وتحتة تمهيد، وأربعة فصول:

الفصل الأول: نسبة الشر إلى الله - تعالى - وحكم ذلك، والحكمة من

إرادة الله لما لا يحبه

الفصل الثاني: الحكمة من خلق إبليس، وخلق المصائب والآلام

الفصل الثالث: الحكمة من خلق المعاصي وتقديرها

الفصل الرابع: الرضا بقدر الله، وحكم ذلك

تهيد

مسألة تعليل أفعال الله ، وإثبات الحكمة فيها من أجل مسائل التوحيد المتعلقة بالخلق والأمر ، والشرع والقدر.

والحديث في هذا المقام لا يسمح بالتفصيل.

وقد اختلف الناس فيها على أقوال شتى ، ولكنها ترجع إلى قولين.

أحدهما: قول نفاة الحكمة ، وهو قول الأشاعرة ومن وافقهم ممن يرى أن الله - عز وجل - قدر المقادير ، وشرع الشرائع لغير علة ، أو حكمة ، بل فعل ذلك لمحض المشيئة ، وصراف الإرادة.

الثاني: قول الجمهور الذين يثبتون الحكمة ، وأنَّ الله في كل ما يقضيه حكمةً ورحمة.

وهذه الحكمة تتضمن شيئين :

أحدهما: حكمة تعود إليه - تعالى - يحبها ويرضاها.

والثاني: حكمة تعود إلى عباده ، فهي نعمة عليهم يفرحون ، ويلتذون بها.

وهذا يكون في المأمورات ، والمخلوقات (1).

يقول ابن القيم رحمته الله مقررًا حكمة الله - تبارك وتعالى - فيما يقدره ويشعره :

(1) انظر أصول الدين للبغدادي ص150-151 ، مجموع الفتاوى 36-35/8 ، وبيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية لابن تيمية 203-197/1 ، وشرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية ص261-263 ، والقضاء والقدر د.عبدالرحمن المحمود 248-242 ، وموقف ابن تيمية من الأشاعرة د.عبدالرحمن المحمود 1312-1310/3.

«ولو ذهبنا نذكر ما يطلع عليه أمثالنا من حكمة الله في خلقه لزد ذلك على عشرة آلاف موضع مع قصور أذهاننا، ونقص عقولنا ومعارفنا، وتلاشيها، وتلاشي علوم الخلائق جميعهم كتلاشي ضوء السراج في عين الشمس، وهذا تقريب وإلا فالأمر فوق ذلك» (1).

وقال رحمته: «وكيف يتوهم ذو فطرة صحيحة خلاف ذلك، وهذا الوجود شاهد بحكمته، وعنايته بخلقه أتم عناية، وما في مخلوقاته من الحكمة، والمصالح، والمنافع، والغايات المطلوبة، والعواقب الحميدة - أعظم من أن يُحيطَ به وصفٌ، أو يحصره عقل؟!» (2).

وقال رحمته: «وجماع ذلك أن كمال الرب - تعالى - وجلاله، وحكمته، وعدله، ورحمته، وإحسانه، وحمده، ومجده، وحقائق أسمائه الحسنی - تمنع كون أفعاله صادرة منه لا لحكمة، ولا لغاية مطلوبة.

وجميع أسمائه الحسنی تنفي ذلك، وتشهد ببطلانه» (3).

وبعد هذا التمهيد ينتقل الحديث إلى المباحث التالية التي تقرر هذا المعنى.

(1) شفاء العليل ص 419.

(2) شفاء العليل، ص 418.

(3) شفاء العليل ص 418.

الفصل الأول

نسبة الشر إلى الله - تعالى - وحكم ذلك،

والحكمة من إرادة الله لما لا يحبه

المبحث الأول: نسبة الشر إلى الله - تعالى - وحكم ذلك:

إذا سأل سائل فقال: نحن نؤمن بالقدر خيره وشره من الله، فهل تصح نسبة الشر إلى الله - تعالى -؟ وهل يقع في أفعاله شر؟
فالجواب: أن يُقال: إن الله - سبحانه وتعالى - منزّه عن الشر، ولا يفعل إلا الخير، والقدر من حيث نسبته إلى الله لا شر فيه بوجه من الوجوه؛ فإنه علم الله، وكتابتُه، ومشيتُه، وخلقُه، وذلك خير محض، وكمال من كل وجه، فالشر ليس إلى الرب بوجه من الوجوه، لا في ذاته، ولا في أسمائه ولا صفاته، ولا في أفعاله.

ولو فعَلَ الشر - سبحانه - لاشتق له منه اسم، ولم تكن أسماؤه كلها حسنى، ولعاد إليه من الشر حكماً - تعالى وتقدس -.

وإنما الشر يدخل في مخلوقاته، ومفعولاته، فالشر في المقضي، لا في القضاء، ويكون شراً بالنسبة إلى محل، وخيراً بالنسبة إلى محل آخر، وقد يكون خيراً بالنسبة إلى المحل القائم به من وجه، كما هو شر من وجه آخر، بل هو الغالب، وهذا كالقصاص، وإقامة الحدود، وقتل الكفار؛ فإنه شرٌ بالنسبة إليهم لا من كل وجه، بل من وجه دون وجه، وخير بالنسبة إلى غيرهم لما فيه من مصلحة الزجر، والنكال، ودفع الناس بعضهم ببعض.

وكذلك الأمراض - وإن كانت شروراً من وجه - فهي خيرٌ من وجوهٍ عديدة.
والحاصل أن الشر لا يُنسب إلى الله - تعالى - ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن
النبي ﷺ كان يثني على ربه بتنزيهه عن الشر بدعاء الاستفتاح في قوله: «لبيك
وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت
وتعاليت» () .

قال الإمام الصابوني رحمه الله في معنى هذا الحديث: «ومعناه - والله أعلم - والشر
ليس مما يُضاف إلى الله إفراداً أو قصداً حتى يُقال: يا خالق الشر، ويا مقدر الشر
وإن كان الخالق والمقدر لهما جميعاً؛ لذلك أضاف الخضر - عليه السلام - إرادة
الغيب إلى نفسه فقال - فيما أخبر الله عنه في قوله - : ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ
يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدَتْ أَنْ أَعْيِبَهَا﴾ سورة الكهف: 79.

ولما ذكر الخير والبر والرحمة أضاف إرادتها إلى الله - عز وجل - فقال: ﴿فَأَرَادَ
رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ سورة الكهف: 82.
ولذلك قال مخبراً عن إبراهيم - عليه السلام - أنه قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ
يَشْفِينِ﴾ سورة الشعراء: 80.

فأضاف المرض إلى نفسه، والشفاء إلى ربه، وإن كان الجميع منه» () .
قال ابن القيم تعليقاً على هذا الحديث: «فتبارك وتعالى عن نسبة الشر إليه، بل
كل ما نسب إليه فهو خير، والشر إنما صار شراً لانقطاع نسبته وإضافته إليه؛ فلو

() رواه مسلم (771).

(بر) عقيدة السلف وأصحاب الحديث للصابوني ص 285.

أُضيف إليه لم يكن شرّاً، وهو - سبحانه - خالق الخير والشر، فالشر في بعض مخلوقاته، لا في خلقه وفعله.

وخلقُهُ، وفعلُهُ، وقضاؤُهُ، وقدره خيرٌ كله؛ ولهذا تنزّه - سبحانه - عن الظلم، الذي حقيقته وضع الشيء في غير موضعه، فلا يضع الأشياء إلا في مواضعها اللائقة بها، وذلك خير كله، والشر وضع الشيء في غير محله، فإذا وُضع في محله لم يكن شرّاً، فعُلم أن الشر ليس إليه، وأسماءه الحسنى تشهد بذلك» () .

وقال - أيضاً - : «فأسماءه الحسنى تمنع نسبة الشر، والسوء، والظلم إليه، مع أنه - سبحانه - الخالق لكل شيء؛ فهو الخالق للعباد، وأفعالهم، وحركاتهم، وأقوالهم، والعبد إذا فعل القبيح المنهي عنه، كان قد فعل الشرّ والسوء.

والربُّ - سبحانه - هو الذي جعله فاعلاً لذلك، وهذا الجعل منه عدلٌ وحكمةٌ، وصوابٌ، فجعلُهُ فاعلاً خيراً، والمفعولُ شرٌّ قبيحٌ؛ فهو - سبحانه - بهذا الجعل قد وضع الشيء في موضعه؛ لما له في ذلك من الحكمة البالغة التي يحمد عليها، فهو خير وحكمة، ومصلحة، وإن كان وقوعه من العبد عيباً، ونقصاً، وشرّاً» (بر).

() شفاء العليل ص 364-365، وانظر منهاج السنة 3/142-144، والتفسير القيم ص 550-556، ومدارج السالكين 1/409، وبدائع الفوائد لابن القيم 2/214-215، والروضة الندية ص 354-360، والحكمة في أفعال الله، د. محمد بن ربيع المدخلي ص 199-204.
(بر) شفاء العليل 366، وانظر ص 366-385 من الكتاب نفسه، ومنهاج السنة 1/145-146 و 3/142-145، والحسنة والسيئة لابن تيمية ص 52-53، وطريق الهجرتين ص 172-181.

«والحاصل أن الله - تعالى - لا يُنسب إليه الشر؛ لأنه إن أُريد بالشر وضع الشيء في غير موضعه - فهو الظلم، ومقابله العدل، والله منزّه عن الظلم. وإن أُريد به الأذى اللاحق بالمحل بسبب ذنب ارتكبه - فإيجاد الله للعقوبة على ذنب لا يُعد شرّاً له؛ بل ذلك عدلٌ منه - تعالى -..

وإن أُريد به عدم الخير، وأسبابه الموصلة إليه - فالعدم ليس فعلاً حتى ينسب إلى الله، وليس للعبد على الله أن يوفقه، فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، ومنع الفضل ليس بظلم ولا شر» (١).

ثم إن على العبد إذا عرف ما يضره وينفعه أن يذلّ لله - عز وجل - حتى يعينه على فعل ما ينفعه، ولا يقول: أنا لا أفعل حتى يخلق الله فيّ الفعل، كما أنه لو هجم عليه عدو أو سبع فإنه يهرب ويفر ولا يقول: سأنتظر حتى يخلق الله فيّ الهرب (بر).

ومن هنا يتبين لنا أن الشر لا ينسب إلى الله - عز وجل -.. وهذا ما سيتضح في المباحث التالية.

(١) الحكمة والتعليل في أفعال الله ص202، وانظر دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب للشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي ص286-287.

(بر) انظر القضاء والقدر للمحمود ص280.

المبحث الثاني: الحكمة من إرادة الله لما يحبه:

إذا قيل: كيف يريد الله أمراً، وفي الوقت نفسه لا يرضاه ولا يحبه؟ وكيف

يجمع بين إرادته له وبغضه وكراهته؟

قيل: إن المراد نوعان: مراد لنفسه، ومراد لغيره، فالمراد لنفسه مطلوب

محبوب لذاته وما فيه من الخير؛ فهو مراد لإرادة الغايات والمقاصد.

والمراد لغيره قد لا يكون مقصوداً لما يريد، ولا فيه مصلحة بالنظر إلى ذاته -

وإن كان وسيلة إلى مقصوده، ومراده - فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته،

مراد له من حيث قضاؤه، وإيصاله إلى مراده؛ فيجتمع الأمران: بغضه،

وإرادته، ولا يتنافيان، فيبغض من وجه، ويحب من وجه آخر.

وهذا أمر معلوم عند الخلق؛ فهذا الدواء الكريه الطعم والرائحة إذا علم

الإنسان أن فيه شفاءً أبغضه من وجه، وأحبه من وجه آخر؛ فيكرهه من جهة

تألمه به، ويحبه من جهة إفضائه إلى ما يحب.

وقل مثل ذلك في العضو المتآكل إذا علم أن في قطعه بقاءً لجسده، وكقطع

المسافة الشاقة إذا علم أنها توصل إلى مراده، ومحبوه، كالذي يقطع الفيافي،

والمفاوز، والقفار، قاصداً البيت العتيق.

ومن هنا يتبين لنا أن الشيء يجتمع فيه الأمران: بغض من وجه، وحب من

وجه آخر، ولا يتنافيان، هذا في شأن المخلوق، فكيف بالخالق الذي لا تخفى

عليه خافية، الذي له الحكمة البالغة؟ فهو - سبحانه - يكره الشيء، ولا يتنافى ذلك مع إرادته له لأجل غيره، وكونه سبباً إلى أمر محبوب (3). وهذا ما سيتضح من خلال الأمثلة التالية في المبحثين التاليين.

() انظر تفصيل ذلك في شفاء العليل ص 412-364 و 460-445، وطريق الهجرتين ص 183-181، والفوائد ص 140-136، ومقدمة مفتاح دار السعادة ص 3 وما بعدها من المقدمة، ومدارج السالكين 1/264-269، و2/190-198، شرح العقيدة الطحاوية ص 252-256، والحكمة والتعليل في أفعال الله ص 210-205، ولوامع الأنوار البهية 1/343-339.

الفصل الثاني

الحكمة من خلق إبليس، وخلق المصائب والآلام

المبحث الأول: خلق إبليس والحكمة من ذلك:

الله - عز وجل - خلق إبليس الذي هو مادة الفساد التي تمد كل فساد في هذه الدنيا، في الأديان، والاعتقادات، والشهوات، والشبهات، وهو سبب لشقاوة العباد، وعمَلهم ما يغضب الله - عز وجل - وهو مع ذلك كله وسيلة إلى محابٍ كثيرة، وحكم عظيمة.

إذا تقرر ذلك فهذه بعض الحكم التي تلمسها العلماء من خلق إبليس:

1- أن يظهر للعباد قدرة الرب - تعالى - على خلق المتضادات والمتقابلات:

فخلق هذه الذات - إبليس - التي هي أخصب الذوات، وهي سبب كل شر، وخلق في مقابلها ذات جبريل التي هي من أشرف الذوات وأزكاها، والتي هي مادة كل خير، فتبارك من خلق هذا وهذا، كما ظهرت قدرته في خلق الليل والنهار، والحر والبرد، والماء والنار، والداء والدواء، والموت والحياة، والحسن والقيح، فالضد يظهر حسنه الضد، وهذا أدل دليل على كمال قدرته، وعزته، وملكه، وسلطانه؛ فإنه خلق هذه المتضادات، وقابل بعضها ببعض، وسلط بعضها على بعض، وجعلها محل تصرفه، وتدييره، وحكمته، فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته، وكمال تصرفه، وتديير مملكته () .

() انظر مدارج السالكين 2/190-191.

2- أن يُكَمِّلَ اللهُ لأوليائه مراتب العبودية: وذلك بمجاهدة إبليس وحزبه، وإغاضته بالطاعة لله، والاستعاذة بالله منه، واللجوء إلى الله أن يعيدهم منه ومن كيده، فيترتب لهم على ذلك من المصالح الدنيوية، والأخروية ما لا يحصل بدونه.

ثم إن المحبة، والإنابة، والتوكل، والصبر، والرضا، ونحوها أحب أنواع العبودية لله، وهذه إنما تتحقق بالجهد، وبذل النفس، وتقديم محبته - عز وجل - على كل من سواه، فكان خلق إبليس سبباً لوجود هذه الأمور (أ).

3- حصول الابتلاء: ذلك أن إبليس خلق ليكون محكاً يمتحن به الخلق؛ ليتبين به الخبيث من الطيب؛ فإن الله - سبحانه - خلق النوع الإنساني من الأرض، وفيها الطيب والخبيث؛ فلا بد أن يظهر فيهم ما هو من مادتهم (ب).

4- ظهور آثار أسمائه - تعالى - ومقتضياتها، ومتعلقاتها: فمن أسمائه: الرافع، الخافض، المعز، المذل، الحكم، العدل (ت).

وهذه الأسماء تستدعي متعلقاتٍ يظهر فيها أحكامها، فكان خلق إبليس سبباً لظهور آثار هذه الأسماء، فلو كان الخلق كلهم مطيعين، ومؤمنين لم تظهر آثار هذه الأسماء.

(أ) انظر الحكمة والتعليل في أفعال العباد ص 205.

(ب) انظر الحكمة والتعليل ص 205، وعالم الجن والشياطين د. عمر الأشقر ص 190.

(ت) انظر مدارج السالكين 191/2، وعالم الجن والشياطين ص 191.

5- استخراج ما في طبائع البشر من الخير والشر: فالطبيعة البشرية مشتملة على الخير والشر، والطيب والحبيث، وذلك كامن فيها كمن النار في الزناد، فخلق الشيطان مستخرجاً لما في طبائع أهل الشر من القوة إلى الفعل، وأرسلت الرسل تستخرج ما في طبيعة أهل الخير من القوة إلى الفعل؛ فاستخرج أحكم الحاكمين ما في هؤلاء من الخير الكامن فيها؛ ليرتب عليه آثاره، وما في أولئك من الشر؛ ليرتب عليه آثاره وتظهر حكمته في الفريقين، وينفذ حكمه فيهما، ويظهر ما كان معلوماً له، مطابقاً لعلمه السابق (١).

6- ظهور كثير من آيات الله وعجائب صنعته: فلقد حصل بسبب وقوع الكفر والشر من النفوس الكفارة الظالمة ظهور كثير من الآيات والعجائب، كآية الطوفان، وآية الريح، وآية إهلاك ثمود وقوم لوط، وآية انقلاب النار على إبراهيم برداً وسلاماً، والآيات التي أجراها الله على يد موسى، وغير ذلك من الآيات؛ فلولا تقدير كفر الكافرين وجحد الجاحدين لما ظهرت هذه الآيات الباهرة التي يتحدث بها الناس جيلاً بعد جيل إلى الأبد.

أما كونه - سبحانه وتعالى - أنظر إبليس إلى يوم القيامة - فليس ذلك إكراماً له بل إهانة له ليزداد إثماً، فتعظم عقوبته، ويتضاعف عذابه، إضافة إلى ذلك فالله جعله محكاً ليميز به الحبيث من الطيب - كما سبق - وما دام أن الخلق مستمر إلى

() انظر شفاء العليل ص 494-495، ومدارج السالكين 2/192-193.

يوم القيامة - فإن هذا يقتضي بقاء خلق البشر، والله أعلم (١).

المبحث الثاني: خلق المصائب والآلام والحكمة من ذلك:

وكذلك خلق الآلام، والمصائب فيه من الحكم ما لا يحيط بعلمه إلا الله - عز وجل - تلك الحكم التي تنطق بفضل الله، وعدله، ورحمته.

قال ابن القيم رحمه الله: «فبالآلام والمشاق إما إحسان ورحمة، وإما عدل وحكمة، وإما إصلاح وتهيئة لخير يحصل بعدها، وإما لدفع ألم هو أصعب منها، وإما لتولدها عن لذات ونعم يولدها عنها أمر لازم لتلك اللذات، وإما أن تكون من لوازم العدل، أو لوازم الفضل والإحسان؛ فتكون من لوازم الخير التي إن عطلت ملزوماتها فات بتعطيلها خير أعظم من مفسدة تلك الآلام.

والشرع والقدر أعدلا شاهد بذلك؛ فكم في طلوع الشمس من ألم لمسافر وحاضر، وكم في نزول الغيث والثلوج من أذى كما سماه الله بقوله: ﴿إِنْ كَانَ بِكُمْ أذىٌ مِنْ مَطَرٍ﴾ سورة النساء: 102.

وكم في هذا الحر والبرد والرياح من أذى موجب لأنواع من الآلام لصنوف الحيوانات.

وأعظم لذات الدنيا لذة الأكل والشرب والنكاح واللباس والرياسة، ومعظم آلام أهل الأرض أو كلها ناشئة عنها، ومتولدة منها.

بل الكمالات الإنسانية لا تنال إلا بالآلام والمشاق كالعلم، والشجاعة،

() انظر مدارج السالكين 193/2.

والزهد، والعفة، والحلم، والمروءة، والصبر، والإحسان كما قال:
لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يُفقرُ والإقدام قَتْلُ
 وإذا كانت الآلام أسباباً لِلذَّاتِ أعظم منها وأدوم - كان العقل يقضي
 باحتمالها» () .

إلى أن قال ﷺ: «وقد حجب الله - سبحانه - أعظم اللذات بأنواع المكاره،
 وجعله جسراً موصلاً إليها كما حجب أعظم الآلام بالشهوات والذات،
 وجعلها جسراً موصلاً إليها.

ولهذا قالت العقلاء قاطبة: إن النعيم لا يدرك بالنعيم، وإن الراحة لا تنال
 بالراحة، وإن مَنْ آثر اللذات فاتته اللذات؛ فهذه الآلام والأمراض والمشاق من
 أعظم النعم؛ إذ هي أسباب النعم.

وما ينال الحيوانات غير المكلفة منها فمغموراً جداً بالنسبة إلى مصالحها
 ومنافعها كما ينالها من حر الصيف، وبرد الشتاء، وحبس المطر والثلج، وألم
 الحمل والولادة، والسعي في طلب أقواتها وغير ذلك.

ولكن لذاتها أضعافُ أضعافِ آلامها، وما ينالها من المنافع والخيرات أضعاف
 ما ينالها من الشرور والآلام؛ فسُنَّتْهُ في خلقه وأمره هي التي أوجبها كمالُ علمه
 وحكمته وعزته.

ولو اجتمعت عقول العقلاء كلهم على أن يقترحوا أحسن منها لعجزوا عن

ذلك ، وقيل لكل منهم : ارجع بصر العقل فهل ترى من خلل؟
﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ سورة
الملك:4، فتبارك الذي من كمال حكمته وقدرته أن أخرج الأضداد من
أضدادها، والأشياء من خلافها؛ فأخرج الحي من الميت، والميت من الحي،
والرطب من اليابس، واليابس من الرطب؛ فكذلك أنشأ اللذات من الآلام،
والآلام من اللذات؛ فأعظم اللذات ثمرات الآلام ونتائجها، وأعظم الآلام ثمرات
اللذات ونتائجها.

وبعدُ فاللذة والسرورُ، والخيرُ والنعمُ، والعافيةُ والصحةُ والرحمةُ في هذه
الدار المملوءة بالحنن والبلاء - أكثرُ من أضدادها بأضعافٍ مضاعفة؛ فأين آلام
الحيوان من لذته؟ وأين سقمه من صحته؟ وأين جوعه وعطشه من شبعه وريه
وتعبه من راحته؟! « () ».

هذا وفي الآلام والمصائب حكم عظيمة غير ما ذُكِرَ، وفيما يلي ذكرٌ لبعضها
على سبيل الإيجاز؛ إذ المقام لا يتسع للتفصيل:

1- استخراج عبودية الضراء وهي الصبر: قال - تعالى - : ﴿ وَنَبُلُوكُمْ بِالشَّرِّ
وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ سورة الأنبياء: 35.

فالابتلاء بالسراء والخير يحتاج إلى شكر، والابتلاء بالضراء والشر يحتاج إلى

صبر.

وهذا لا يتم إلا بأن يقبَل الله الأحوال على العبد حتى يتبين صدق عبوديته لله
- تعالى -.

قال عليه السلام: «عجباً لأمر المؤمن؛ إن أمره كله له خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» () .

2- طهارة القلب، والخلاص من الخصال القبيحة: ذلك أن الصحة قد تدعو إلى الأشر، والبطر، والإعجاب بالنفس، لما يتمتع به المرء من نشاط، وقوة، وهدوء بال، ونعيم عيش.

فإذا قيّد بالبلاء والمرض انكسرت نفسه، ورق قلبه، وتطهر من أدران الأخلاق الذميمة، والخصال القبيحة من كبر، وخيلاء، وعجب، وحسد، ونحوها، وحلّ محلّها الخضوع لله، والانكسار بين يديه، والتواضع لخلق الله، وترك الترفع عليهم.

قال المنبجي (رحمته الله): «وليعلم أهل المصائب أنه لولا محن الدنيا ومصائبها

() رواه مسلم (2999).

(بر) هو محمد بن محمد بن محمد بن محمود الصالحي المنبجي، كان من فضلاء الحنابلة، سمع الحديث، وحفظ المقنع، وأفتى، ودرّس، وكان يكتسب من حانوت له، على طريق السلف من الدين والتقشف والتعبد، وهو صاحب الجزء المشهور في الطاعون وأحكامه، ذكر فيه فوائد كثيرة وغريبة، توفي سن 774هـ.

لأصاب العبد من أدواء الكبر، والعجب، والفرعنة، وقسوة القلب ما هو سبب هلاكه عاجلاً وأجلاً؛ فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقد في الأحيان بأنواع من أدوية المصائب؛ تكون حمية له من هذه الأدواء، وحفظاً لصحة عبوديته، واستفراغاً للمواد الفاسدة، الرديئة، المهلكة؛ فسبحان من يرحم ببلائه، ويبتلي بنعمائه، كما قيل:

قد ينعم الله بالبلوى، وإن عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعيم
فلولا أنه - سبحانه وتعالى - يداوي عباده بأدوية المحن والابتلاء لطفوا،
ويغوا، وعتوا، وتجبروا في الأرض، وعاثوا فيها بالفساد؛ فإن من شيم النفوس
إذا حصل لها أمر، ونهي، وصحة، وفراغ، وكلمة نافذة من غير زاجر شرعي
يزجرها - تمردت، وسعت في الأرض فساداً، مع علمهم بما فعل بمن قبلهم،
فكيف لو حصل لهم مع ذلك إهمال؟

ولكن الله - سبحانه وتعالى - إذا أراد بعبد خيراً سقاه دواء الابتلاء والامتحان
على قدر حاله، يستفرغ منه الأدوية المهلكة، حتى إذا هذبه، ونقاه، وصفاه
أهله لأشرف مراتب الدنيا، وهي عبوديته، ورفاه أرفع ثواب الآخرة، وهي
رؤيته» () .

انظر شذرات الذهب لابن العماد 289/6، والسحب الوابلة للشيخ محمد بن عبدالله بن حميد
النجدي 1081/3.

() تسلية أهل المصائب للمنبجي ص 25.

3- تقوية المؤمن: ذلك أن في المصائب تدريباً للمؤمن، وامتحاناً لصبره، وتقوية لإيمانه.

4- النظر إلى قهر الربوبية وذل العبودية: فإنه ليس لأحد مفر عن أمر الله، وقضائه، ولا محيد عن حكمه النافذ وابتلائه؛ فنحن عبيد الله، يتصرف فينا كما يشاؤه ويريده، ونحن إليه راجعون في جميع أمورنا، وإليه المصير يجمعنا لنشورنا.

5- حصول الإخلاص في الدعاء، وصدق الإنابة في التوبة: ذلك أن المصائب تُشعر الإنسان بضعفه، وافتقاره الذاتي إلى ربه، فيبعثه ذلك إلى إخلاص الدعاء له، وشدة التضرع والاضطرار إليه، وصدق الإنابة في التوبة والرجوع إليه.

ولولا هذه النوازل لم يُرَ على باب اللجأ والمسكنة؛ فالله - عز وجل - علم من الخلق اشتغالهم عنه، فابتلاهم من خلال النعم بعوارض تدفعهم إلى بابه يستغيثون به؛ فهذا من النعم في طي البلاء، وإنما البلاء المحض ما يشغلك عن ربك.

قال سفيان بن عيينة رحمته الله: «ما يكره العبد خيراً له مما يحب؛ لأن ما يكرهه يهيجه للدعاء، وما يحبه يلهيه» () .

6- إيقاظ المبتلى من غفلته: فكم من مبتلى بفقد العافية حصلت له توبة شافية، وكم من مبتلى بفقد ماله انقطع إلى الله بحسن حاله، وكم من غافل عن نفسه، معرض عن ربه أصابه بلاء فأيقظه من رقادته، ونبهه من غفلته، وبعثه

() الفرغ بعد الشدة لابن أبي الدنيا ص22.

لتفقد حاله مع ربه.

7- معرفة قدر العافية: لأن الشيء لا يعرف إلا بضده، فيحصل بذلك الشكرُ الموجب للمزيد من النعم؛ لأن ما منَّ الله به من العافية أتم وأنعم، وأكثر وأعظم مما ابتلى وأسقم، ثم إن حصول العافية والنعمة بعد ألم ومشقة أعظم قدراً عند الإنسان.

8- أن من الآلام ما قد يكون سبباً للصحة: فقد يصاب المرء بمرض ويكون سبباً للشفاء من مرض آخر، وقد يتلى ببلىة فيذهب لعلاجها فيكتشف أن به داءً عضالاً لم يكتشف إلا بسبب هذا المرض الطارئ، قال أبو الطيب المتنبي:

لعلَّ عَثْبَكَ محمودٌ عواقِبُهُ وريما صحت الأبدان بالعلل ()

قال ابن القيم رحمته الله: «وكثيراً ما تكون الآلام أسباباً للصحة لولا تلك الآلام لغاتت.

وهذا شأن أكبر أمراض البدن؛ فهذه الحمى فيها من المنافع للأبدان ما لا يعلمه إلا الله، وفيها من إذابة الفضلات، وإنضاج المواد الفجّة وإخراجها ما لا يصل إليه دواءٌ غيرها.

وكثير من الأمراض إذا عرض لصاحبها الحمى استبشر بها الطبيب» (ب).

9- حصول رحمة أهل البلاء: فالذي يتلى بأمر ما - يجد في نفسه رحمة

() ديوان المتنبي 86/3.

(بر) شفاء العليل، ص 499.

لأهل البلاء، وهذه الرحمة موجبة لرحمة الله وجزيل العطاء؛ فمن رَحِمَ من في الأرض رَحِمَهُ من في السماء.

10- حصول الصلاة من الله والرحمة والهداية: قال -تعالى-: ﴿وَلَنُبَلِّغَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ سورة البقرة: 155-157.

11- حصول الأجر، وكتابة الحسنات وحط الخطيئات: قال ﷺ: «ما من شيء يصيب المؤمن، حتى الشوكة تصيبه، إلا كتب الله له بها حسنة، أو حطت عنه بها خطيئة» () .

قال بعض السلف: «لولا مصائب الدنيا لوردنا القيامة مفاليس» (ب).
بل إن الأجر والثواب لا يختص به المبتلي فحسب، بل يتعداه إلى غيره؛ فالطبيب المسلم إذا عالج المريض واحتسب الأجر كتب له الأجر - بإذن الله -؛ فمن نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة.
وكذلك الذي يزور المريض المبتلى يكتب له الأجر، وكذلك من يقوم على رعايته.

12- العلم بمقارة الدنيا وهوانها: فأدنى مصيبة تصيب الإنسان تعكر صفوه،

() رواه مسلم (2572).

(ب) برد الأكباد ص 46.

وتنغص حياته، وتنسيه مآلده، والكيسُ الفطنُ لا يغتر بالدنيا، بل يجعلها مزرعة للآخرة.

13- أن اختيار الله للعبد خير من اختيار العبد لنفسه: وهذا سر بديع، يحسن بالعبد أن يتفطن له؛ ذلك أن الله - عز وجل - أرحم الراحمين، وأحكم الحاكمين؛ فهو أعلم بمصالح عباده منهم، وهو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم. وإذا أنزل بهم ما يكرهون كان خيراً لهم من ألا ينزل بهم؛ نظراً منه لهم، وإحساناً إليهم، ولطفاً بهم.

ولو مكنوا من الاختيار لأنفسهم لعجزوا عن القيام بمصالحهم، لكنه - عز وجل - تولى تدبير أمورهم بموجب علمه، وعدله، وحكمته، ورحمته أحبوا أم كرهوا.

14- أن الإنسان لا يعلم عاقبة أمره: فر بما طلب ما لا تحمد عقباه، وربما كره ما ينفعه، والله - عز وجل - أعلم بعاقبة الأمر.

قال ابن القيم رحمته: «فقضاؤه للعبد المؤمن عطاء وإن كان في صورة المنع، ونعمة وإن كان في صورة محنة، وبلاؤه عافية وإن كان في صورة بلية. ولكن لجهل العبد وظلمه لا يعد العطاء والنعمة والعافية إلا ما التذ به في العاجل، وكان ملائماً لطبعه.

ولو رزق من المعرفة حظاً وافراً لعد المنع نعمة، والبلاء رحمة، وتلذذ بالبلاء أكثر من لذته بالعافية، وتلذذ بالفقر أكثر من لذته بالغنى، وكان في حال القلة

أعظم شكراً من حال الكثرة» () .

15- الدخول في زمرة المحبوبين لله - عز وجل - : فالمبتلون من المؤمنين يدخلون في زمرة المحبوبين المشرفين بمحبة رب العالمين؛ فهو - سبحانه - إذا أحب قوماً ابتلاهم، وقد جاء في السنة ما يشير إلى أن الابتلاء دليل محبة الله للعبد؛ حيث قال النبي ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط» (ب).

16- أن المكروه قد يأتي بالمحوب والعكس : فإذا صحت معرفة العبد بربه علم يقيناً أن المكروهات التي تصيبه، والمحن التي تنزل به أنها تحمل في طياتها ضرورياً من المصالح والمنافع لا يحصيها علمه، ولا تحيط بها فكرته.

بل إن مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يحب؛ فعامة مصالح النفوس في مكروهاتها، كما أن عامة مضارها وأسباب هلكتها في محبوباتها، قال - تعالى - :
﴿ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ سورة النساء : 19.
وقال : ﴿ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ سورة البقرة : 216.

فإذا علم العبد أن المكروه قد يأتي بالمحوب، وأن المحبوب قد يأتي بالمكروه - لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب

() مدارج السالكين 215/2-216.

(بر) أخرجه الترمذي (2396) وابن ماجه (4031) من حديث أنس، وحسنه الترمذي، والألباني

في صحيح الترمذي 286/2.

المضرة () .

إلى غير ذلك من الحكم التي قد يعلمها بعض الناس وقد لا يعلمها.
ومن هنا يتضح لنا أنه لا تنافي بين إرادة الله لأمر من الأمور مع بغضه له؛ لما له
- عز وجل - من الحكم العظيمة الباهرة.
هذا وسيأتي مزيد بيان لهذه المسألة في المبحث الآتي عند الحديث عن الحكمة
من خلق المعاصي وتقديرها، وعند الحديث عن مسألة الهداية والإضلال.

() انظر تفصيل الحديث عن حكم المصائب في: صيد الخاطر لابن الجوزي ص 91-95
و 213-215 و 327-328، والفوائد لابن القيم ص 137-139 و 178-179 و 200-202، وبرد
الأكباد ص 37-39.

الفصل الثالث

الحكمة من خلق المعاصي وتقديرها

قد مر بنا أن الله - عز وجل - له الحكمة البالغة فيما يقدره ويقضيه، كما مر ذكر لبعض الأمثلة الدالة على حكمة الله - عز وجل - .

والحديث في هذا المبحث إنما هو إتمام لما مضى ذكره، وأفرد هاهنا لكثرة الشبهات حوله، ولقلة الحديث عنه، ولكونه مرتبطاً بكثير من مباحث هذا الكتاب؛ فهل هناك من حكم لخلق المعاصي وتقديرها؟

والجواب عن هذا الإشكال أن لخلق المعاصي وتقديرها حكماً عظيمة، وأسراراً بديعة، باهرة، ولكن الحديث عن ذلك قليل جداً.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «وهذا باب عظيم من أبواب المعرفة قلَّ من استفتحه من الناس، وهو شهود الحكمة البالغة من قضاء السيئات وتقدير المعاصي.

وإنما استفتح الناس باب الحكم في الأوامر والنواهي، وخاضوا فيها، وأتوا بما وصلت إليه علومهم.

واستفتحوا - أيضاً - بابها في المخلوقات - كما قدمناه - وأتوا بما وصلت إليه قواهم.

وأما هذا الباب فكما رأيت كلامهم فيه، فقلَّ أن ترى لأحدهم ما يشفي، أو يلم.

وكيف يطَّلَع على حكمة هذا الباب من عنده أن أعمال العباد ليست مخلوقة لله

ولا داخلة تحت مشيئته أصلاً؟ وكيف يتطلب لها حكمة، أو يثبتها، أم كيف يطلع من يقول: هي خلق الله، ولكن أفعاله غير معللة بالحكم؟» () .

إلى أن قال: «والمقصود أن مشاهدة حكمة الله في أفضيته وأقداره التي يجريها على عباده باختياراتهم وإراداتهم هي ألطف ما تكلم فيه الناس، وأدقّه، وأغمضه، وفي ذلك حكمٌ لا يعلمها إلا الحكيم العليم - سبحانه - ونحن نشير إلى بعضها» (بر).

ثم شرع ﷺ في ذكر العديد من الحكم في هذا الشأن، فمن الحكم من خلق المعاصي وتقديرها ما يلي (تر):

1- أن الله يحب التوابين: حتى إنه ليفرح بتوبة أحدهم أعظم من فرح الواحد براحلته التي عليها طعامه، وشرابه في الأرض الدوية المهلكة إذا فقدتها وأيس منها.

وليس من أنواع الفرحة أكمل وأعظم من هذا الفرحة؛ فالله - عز وجل - يقضي على عبده بالذنب، ثم إن كان ممن سبقت له الحسنى قضى له بالتوبة، وإن كان ممن غلبت عليه الشقاوة أقام عليه حجة عدله، وعاقبه بذنبه.

() مفتاح دار السعادة 286/1.

(بر) مفتاح دار السعادة 286/1.

(تر) الكلام في هذا أكثره مستفاد من مفتاح دار السعادة لابن القيم 286/1-299، فهو ﷺ أبرز من تكلم في هذا الموضوع الدقيق، بل لا تكاد تجد لغيره كلاماً جامعاً في هذا الباب.

قال عليه السلام: «لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلاً وبه مهلكة، ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومةً، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته حتى اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله.

قال: أرجع إلى مكاني، فرجع فنام نومةً، ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده» (1).

قال ابن القيم رحمه الله تعليقاً على هذا الحديث: «ولم يجيء هذا الفرحة في شيء من الطاعات سوى التوبة، ومعلوم أن لهذا الفرحة تأثيراً عظيماً في حال التائب وقلبه، ومزيده لا يُعبر عنه.

وهو من أسرار تقدير الذنوب على العباد؛ فإن العبد ينال بالتوبة درجة المحبوبة، فيصير حبيباً لله؛ فإن الله يحب التوابين، ويحب العبد المفتن التواب» (2).

2- أن الله - عز وجل - يحب أن يتفضل على عباده: ويتم نعمه عليهم، ويريهم مواقع بره وكرمه؛ فلذلك ينوعه عليهم أعظم الأنواع في سائر الوجوه الظاهرة والباطنة.

ومن أعظم ذلك أن يحسن إلى من أساء، ويعفو عن ظلم، ويغفر لمن

(1) رواه البخاري (6308)، ومسلم (2744).

(2) مدارج السالكين 306/1، وانظر كلاماً جميلاً في المدارج 230-226/1 حول معنى فرحة

الله - عز وجل - بتوبة التائب.

أذنب، ويتوب على من تاب إليه، ويقبل عذر من اعتذر إليه. وقد ندب عباده إلى هذه الشيم الفاضلة، والأفعال الحميدة، وهو أولى بها منهم وأحق، وكان في تقدير أسبابها من الحكم والعواقب الحميدة ما يبهر العقول.

هذا ولو شاء الله ألا يُعصى في الأرض طرفة عين لم يُعصَ، ولكن اقتضت مشيئته ما هو موجب حكمته - سبحانه - (١).

3- أن يعرف العبد حاجته إلى حفظ الله له، ومعونته، وصيائته: وأنه كالوليد في حاجته إلى من يحفظه؛ فإنه إن لم يحفظه مولاه، ويصونه، ويعينه فهو هالك ولا بد (ب).

قال ابن القيم رحمه الله: «وقد مدَّت الشياطين أيديها إلى العبد من كل جانب، تريد تمزيق حاله كله، إفساد شأنه كله، وأن مولاه إن وكله إلى نفسه وكله إلى ضيعة وعجز وذنب وخطيئة وتفريط؛ فهلاكه أدنى إليه من شرك نعله؛ فقد أجمع العلماء بالله على أن التوفيق ألا يكُل اللهُ العبدَ إلى نفسه، وأجمعوا على أن الخذلان أن يخلي بينه وبين نفسه» (٢).

4- استجلاب العبوديات المتنوعة من العبد إذا أذنب: من استعادة،

(1) انظر مدارج السالكين 223/1.

(2) انظر مدارج السالكين 222/1، ومفتاح دار السعادة 288/1.

(3) مفتاح دار السعادة 288/1.

واستعانة، ودعاء، وتضرع، مما هو من أعظم أسباب سعادته وفلاحه؛ فيحصل للروح بذلك قرب خاص لم يكن يحصل بدون هذه الأسباب، ويجد العبد نفسه كأنه ملقى على باب مولاه بعد أن كان نائياً عنه؛ فهو لا يرى نفسه إلا مسيئاً، ولا يرى ربه إلا محسناً، قد كسر إزراؤه على نفسه قلبه، وذل لسائه جوارحه؛ فلو لم يكن من ثمرات ذلك القضاء والقدر إلا هذا الكفى به حكمة وكفى (1).

5- استخراج تمام العبودية: وذلك بتكميل مقام الذل والانقياد؛ فأكمل الخلق عبودية أكملهم ذلاً لله، وانقياداً، وطاعة (ب).

6- أن يعرف العبد حقيقة نفسه: وأنها الظلمة الجهول، وأن ما صدر منها من شر فقد صدر من أهله ومعدنه؛ إذ الجهل والظلم منبع الشر كله، وأن كل ما فيها من خير، وعلم، وهدى، وإنابة، وتقوى فهو من ربها الذي زكاها به، وأعطاه إياه.

فإذا ابتلي العبد بالذنب عرف نفسه، ونقصها؛ فرُتّب له على ذلك حكمٌ ومصالح عديدة، منها أن يأنف نقصها، ويجتهد في كمالها، ومنها أن يعلم فقرها إلى من يتولاها ويحفظها (ت).

7- تعريف العبد بكرم الله، وستره، وسعة حلمه: وأنه لو شاء لعاجله على

(1) انظر مدارج السالكين 224/1، ومفتاح دار السعادة 288-289.

(2) انظر مدارج السالكين 224/1، ومفتاح دار السعادة 288/1.

(3) انظر مفتاح دار السعادة 290/1، ومدارج السالكين 235/1.

الذنب ، ولهتك ستره بين العباد ، فلم يَطْبُ له عيشٌ معهم أبداً .
ولكنه - عز وجل - جلَّه بستره ، وغشاه بحلمه ، وقَيَّض له من يحفظه وهو في حالته هذه ، بل كان شاهداً عليه وهو يبارزه بالمعاصي والآثام ، ومع ذلك يحرسه بعينه التي لا تنام (1) .

8- تعريف العبد بكرم الله في قبول التوبة : فلا سبيل إلى النجاة إلا بعفو الله وكرمه ومغفرته ، فهو الذي جاد عليه بأن وفقه للتوبة ، وألهمه إياها ، ثم قبلها منه ، فتاب عليه أولاً وآخراً (2) .

9- إقامة الحجة على العبد : فإذا أصابه ما أصابه فلا يقل : من أين أتيت ، ولا بأي ذنب أُصبت ؛ فما أصاب العبد من مصيبة قط دقيقة أو جليلة إلا بما كسبت يده ، وما يعفو الله أكثر (3) .

10- أن يعامل العبد بني جنسه بما يجب أن يعامله الله به : فيعامل بني جنسه في زلاتهم وإساءاتهم بما يجب أن يعامله الله في إساءته ، وزلاته ، وذنوبه ؛ فإن الجزاء من جنس العمل ، فمن عفى عفى الله عنه ، ومن سامح أخاه سامحه الله ، ومن استقصى استقصى الله عليه ، وهكذا . . .

(1) انظر مدارج السالكين 223/1 ، ومفتاح دار السعادة 290/1 .

(2) انظر مفتاح دار السعادة 291/1 .

(3) انظر مفتاح دار السعادة 291/1 ، ومدارج السالكين 232/1-234 .

ثم إذا علم أن الذنوب والإساءة لازمة للإنسان لم تعظم عنده إساءة الناس إليه؛ فليتأمل حاله مع ربه، كيف هو مع فرط إحسانه إليه، وحاجته هو إلى ربه، وهو هكذا له؛ فإذا كان العبد هكذا لربه فكيف ينكر أن يكون الناس له بتلك المنزلة؟^(١)

11- إقامة المعاذير للخلائق: فإذا أذنب العبد أقام المعاذير للخلائق، واتسعت رحمته لهم، واستراح من الضيق والحصر، وأكل بعضه بعضاً، واستراح العصاة من دعائه عليهم، وقنوطه من هدايتهم؛ فإنه إذا أذنب رأى نفسه واحداً منهم، فهو يسأل الله لهم المغفرة، ويرجو لهم ما يرجوه لنفسه، ويخاف عليهم ما يخافه على نفسه.

ومع هذا فيقيم أمر الله فيهم؛ طاعةً لله، ورحمةً بهم، وإحساناً إليهم؛ إذ هو عين مصلحتهم، لا غلظة، ولا قوة، ولا فظاظة^(٢).

12- أن يخلع العبد صولة الطاعة من قلبه: وينزع داء الكبر والعظمة الذي ليس له، ويلبس رداء الذل، والانكسار، والفقر والفاقة؛ فلو دامت تلك الصولة والعزة في قلبه لخيف عليه مما هو أعظم الآفات؛ فكم بين آثار العجب والكبر وصولة الطاعة، وبين آثار الذلة والمسكنة والانكسار؟^(٣)

(1) انظر مفتاح دار السعادة 291/1-292.

(2) انظر مفتاح دار السعادة 292/1.

(3) انظر مفتاح دار السعادة 292/1-293.

قال ابن القيم رحمته الله: «وأكثر الناس من المتنزهين عن الكبائر الحسية والقاذورات - في كبائر مثلها أو أعظم منها أو دونها، ولا يخطر بقلوبهم أنها ذنوب ليتوبوا منها؛ فعندهم من الإزراء على أهل الكبائر واحتقارهم وصولاً طاعتهم، وممتهم على الخلق بلسان الحال، واقتضاء بواطنهم لتعظيم الخلق لهم على طاعتهم اقتضاءً لا يخفى على أحد غيرهم، وتوابع ذلك ما هو أبغض إلى الله، وأبعد لهم عن بابه من كبائر أولئك؛ فإن تدارك الله أحدهم بقاذورة أو كبيرة يوقعه فيها؛ ليكسر بها نفسه، ويعرفه قدره، ويؤدله بها، ويخرج بها صولة الطاعة من قلبه - فهي رحمة في حقه، كما أنه إذا تدارك أصحاب الكبائر بتوبة نصوح، وإقبال بقلوبهم إليه - فهو رحمة في حقهم، وإلا فكلاهما على خطر» (1).

ثم إن التذلل والانكسار والخضوع لب العبودية؛ إذ هذه الأعمال القلبية أحب إلى الله من كثير من الأعمال الظاهرة، وحصول ذلك للمذنب التائب أكمل له من غيره؛ فإنه قد شارك من لم يُذنب في ذل الفقر والعبودية والمحبة، وامتناز عنه بانكسار قلبه.

وقد جاء في الأثر الإسرائيلي: «يا رب أين أجذك؟»

قال: عند المنكسرة قلوبهم من أجلي» (١).

ولأجل هذا كان «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد» (٢).

لأنه مقام ذل وانكسار بين يدي ربه.

ولعل هذا هو السر في استجابة دعوة المظلوم، والمسافر، والصائم؛ للكسرة في قلب كل واحد منهم؛ فإن لوعة المظلوم تُحْدِثُ عنده كسرة في قلبه، وكذلك المسافر في غربته يجد كسرة في قلبه، وكذلك الصوم، فإنه يكسر سورة النفس السَّبْعِيَّة الحيوَانِيَّة.

13- هياج العبوديات القلبية وانبعاثها: ذلك أن الله على القلوب أنواعاً من

العبودية، من الخوف، والحشية، والإشفاق، والوجل، وتوابعها من المحبة، والإِنَابَة، وابتغاء الوسيلة وتوابعها.

وهذه العبوديات لها أسباب تهيجها وتبعث عليها؛ وكلما قَبِضَ الرب -تعالى- لعبده من الأسباب الباعثة على ذلك، المهيجة له فهو من أسباب رحمته، ورُبَّ ذنب قد هاج لصاحبه من الخوف، والإشفاق، والوجل، والإِنَابَة، والمحبة،

(1) ذكره ابن القيم في مدارج السالكين 306/1، وأورده في إغائة اللفهان ص 97 عن عمران ابن موسى القصير قال: قال موسى - عليه السلام - : « يا رب أين أبغيك؟ قال أبغيني عند المنكسرة قلوبهم؛ فإني أدنو منهم كل يوم باعاً، ولولا ذلك لانهدموا».

ورواه ابن أبي الدنيا في الهم والحزن ص 56 بإسناده عن عبد الله بن شوذب قال: قال داود النبي: «أي رباً أين ألقاك؟ قال: تلقاني عند المنكسرة قلوبهم».

(2) أخرجه مسلم (482).

والفرار إلى الله ما لا يهيجه كثير من الطاعات، وكم من ذنب كان سبباً لاستقامة العبد، وفراره إلى الله، وبعده عن طريق الغي (١).

14- أن يعرف العبد نعمة معافاة الله وفضله، وتوفيقه له، وحفظه إياه: فإن

من تربى في العافية لا يعلم ما يقاسيه المبتلى، ولا يعرف مقدار العافية؛ فلو عرف أهل الطاعة أنهم هم المنعم عليهم في الحقيقة لعلموا أن الله عليهم من الشكر أضعاف ما على غيرهم وإن توسدوا التراب، ومضغوا الحصى، فهم أهل النعمة المطلقة، وأن من خلى الله بينه وبين معاصيه فقد سقط من عينه، وهان عليه.

فإذا طالبت العبد نفسه بما تطالبه من الحظوظ والأقسام، وأرته أنه في بلية وضائقة تداركه الله برحمته، وابتلاه ببعض الذنوب، فرأى ما كان فيه من المعافاة والنعمة، وأنه لا نسبة لما كان فيه من النعم إلى ما طلبته نفسه من الحظوظ، فحينئذ يكون أكثر أمانيه وآماله العود إلى حاله، وأن يمتعه الله بعافيته (٢).

15- أن التوبة توجب للتائب آثاراً عجيبة من المقامات التي لا تحصل

بدونها: فتوجب له المحبة، والرقعة، واللطف، وشكر الله، وحمده، والرضا عنه، فرتب له على ذلك أنواع من النعم لا يهتدي العبد لتفاصيلها، بل لا يزال يتقلب في بركتها، وآثارها ما لم ينقضها، أو يفسدها (٣).

16- استكثار القليل من النعم: فإذا شهد العبد ذنوبه، ومعاصيه، وتفريطه

(1) انظر مفتاح دار السعادة 293/1.

(2) انظر مفتاح دار السعادة 293/1.

(3) انظر مفتاح دار السعادة 294/1.

في حق ربه استكثر القليل من نعم ربه عليه - ولا قليل منه - لعلمه أن الواصل إليه منها كثير على مسيء مثله ، واستقل الكثير من عمله؛ لعلمه أن الذي ينبغي أن يغسل به أوضاره أضعافاً ما أتى به؛ فهو دائماً مستقل لعمله كائناً ما كان، مستكثر لنعمة الله عليه وإن دقت.

قال ابن القيم رحمه الله عن هذا الوجه: «وهو من أطف الوجوه؛ فعليك بمراعاته؛ فله تأثير عجيب، ولو لم يكن من فوائد الذنب إلا هذا لكفى؛ فأين حال هذا من حال من لا يرى لله عليه نعمة إلا ويرى أنه ينبغي أن يعطى ما هو فوقها وأجل منها» (1).

إلى أن قال عن هذا الضرب من الناس: «وهذا الضرب من الناس من أبغض الخلق إلى الله، وأشدّهم مقتاً عنده، وحكمة الله تقتضي أنهم لا يزالون في سفال؛ فهم بين عتب على الخالق وشكوى له، وذلّ لخلقهم وحاجة إليهم، وخدمة لهم» (2).

17- أن الذنب يوجب لصاحبه التحرز والتيقظ من مصائد عدوه ومكائده:

فيعلم من أين يدخل عليه اللصوص والقطاع ومكامنهم، ومن أين يخرجون عليه، وفي أي وقت يخرجون؛ فهو قد استعد لهم، وتأهب، وعرف بماذا يستدفع شرهم وكيدهم؛ فلو أنه مرّ عليهم على غرّة وطمأنينة لم يأمن أن يظفروا

(1) مفتاح دار السعادة 294/1.

(2) مفتاح دار السعادة 294/1.

به، ويجتاحوه جملة (1).

18- مراغمة الشيطان وإغاضته ومجاهدته: فالقلب يذهل عن عدوه، فإذا أصابه منه مكروه استجمعت له قوته، وطلب بثأره إن كان قلبه حرّاً كريماً. كالرجل الشجاع إذا جرح فإنه لا يقوم له شيء، بل تراه بعدها هائجاً، طالباً، مقداماً.

والقلب المهين كالرجل الضعيف المهين إذا جرح ولّى هارباً، والجراحات في أكتافه.

وكذلك الأسد إذا جرح فإنه لا يطاق؛ فلا خير فيمن لا مروءة له، لا يطلب أخذ ثأره من أعدى عدو له.

فما شيء أشقى للقلب من أخذه بثأره من عدوه، ولا عدوً أعدى له من الشيطان؛ فإن كان له قلب من قلوب الرجال المتسابقين في حلبة المجد جدّ في أخذ الثأر، وغاز عدوّه كل الغيظ، وأضناه (ب).

كما جاء عن بعض السلف: «إن المؤمن ليُنْضِي شيطانه كما ينضي أحدكم بغيره في سفره» (ت).

19- معرفة الشر؛ حذر الوقوع فيه: فالذي يقع في الذنب يصير كالطبيب

(1) انظر مفتاح دار السعادة 295/1.

(2) انظر مفتاح دار السعادة 295/1.

(3) مفتاح دار السعادة 295/1.

ينتفع به المرضى في علاجهم ودوائهم؛ فالطبيب الذي عرف المرض مباشرة، وعرف دواءه وعلاجه أحذق وأخبر من الطبيب الذي عرف الداء وصفاً فحسب. هذا في أمراض الأبدان، وكذلك أمراض القلوب وأدواؤها. ولذلك كان الصحابة - رضي الله عنهم - أعرف الأمة بالإسلام، وتفصيله، وأبوابه، وطرقه، وأشد الناس رغبة فيه، ومحبة له، وجهاداً لأعدائه؛ لعلمهم بضده.

فإذا عرف العبد الضدين، وعلم مباينة الطرفين، وعرف أسباب الهلاك على التفصيل - كان أحرى أن تدوم له النعمة ما لم يؤثر أسباب زوالها على علم، وفي مثل هذا قال القائل:

عرفتُ الشرَّ لا للشرِّ ركنٌ لتوقيه
ومن لا يعرف الشرَّ من الناس يقع فيه

وهذه حال المؤمن يكون فطناً حاذقاً أعرف الناس بالشر، وأبعدهم عنه؛ فإذا تكلم في الشر وأسبابه ظننته من شر الناس، فإذا خالطته، وعرفت طويته رأيتَه من أبر الناس.

والمقصود أن من بُلي بالآفات صار أعرف الناس بطرقها، وأمكنه أن يسدها على نفسه، وعلى من استنصحه من الناس، ومن لم يستنصحه (1).

20- ابتلاء العبد بالإعراض عنه: فالله - عز وجل - يذيق عبده ألم الحجاب

(1) انظر مفتاح دار السعادة 1/295-296.

عنه، وزوال ذلك الأنس به، والقرب منه؛ ليمتحن عبده، فإن أقام العبد على الرضا والحال، ولم يجد نفسه تطالبه بحالها الأول مع الله، بل اطمأنت وسكنت إلى غيره - علم أنه لا يصلح، فوضعه في مرتبته التي تليق به.

وإن استغاث استغاثة الملهوف، وتَقَلَّقَ تَقَلَّقَ المكروب، ودعاه دعاء المضطر، وعلم أنه قد فاتته حياته حقاً، فهو يهتف بربه أن يرد عليه ما لا حياة له بدونه - علم أنه موضع لما أهّل له، فردّ عليه أحوج ما هو محتاج إليه، فعظمت به فرحته، وكملت به لذته، وتمت به نعمته، واتصل به سروره، وعلم حينئذٍ مقداره، فعصّ عليه بالنواجذ، وثنى عليه بالخصائص؛ فالعبد إذا بُليَ بعدَ الأُنسِ بالوحشة، وبعد القرب بنار البعاد - اشتاقت نفسه إلى لذة تلك المعاملة، فحنّت، وأنتت، وتصدّعت، وتعرضت لنفحات من ليس لها عنه عوضٌ أبداً، ولا سيما إذا تذكر برّه، ولطفه، وحنانه، وقربه (1).

21- أن الحكمة الإلهية اقتضت تركيب الشهوة والغضب في الإنسان: وهاتان

القوتان فيه بمنزلة صفاته الذاتية التي لا ينفك عنهما، وبهما وقعت الفتنة والابتلاء.

وتركيب الإنسان على هذا الوجه هو غاية الحكمة، ولا بد أن يقتضي كل واحد من القوتين أثره، فلا بد من وقوع الذنب، والمخالفات والمعاصي. ولو لم تُخلق في الإنسان لم يكن إنساناً، بل كان ملكاً، فأما من اكتنفته

(1) انظر مفتاح دار السعادة 296/1.

العصمة، وضُرِبَتْ عليه سرادقاتُ الحفظ - فهم أقل أفراد النوع الإنساني، بل هم خلاصته ولبه (1).

22- أن الله إذا أراد بعبد خيراً أنساه رؤية طاعته، ورفعها من قلبه ولسانه:
فإذا ابتلي العبد بالذنب جعله نصب عينيه، وجعل همه كله بذنبه، فلا يزال ذنبه أمامه إن قام أو قعد، أو غداً أو راح، فيكون هذا عين الرحمة في حقه، كما قال بعض السلف: «إن العبد ليعمل الخطيئة فلا تزال نصب عينيه كلما ذكرها بكى، وندم، واستغفر، وتضرع، وأناب إلى الله، وذل وانكسر، وعمل لها أعمالاً فتكون سبباً للرحمة في حقه.

ويعمل الحسنة، فلا تزال نصب عينيه، يمن بها، ويراهها، ويعتد بها على ربه، وعلى الخلق، ويتكبر بها، ويتعجب من الناس كيف لا يعظمونه، ويكرمونه، ويجلونهم عليها، فلا تزال هذه الأمور به حتى تقوى عليه آثارها فتدخله النار» (بر).

23- لزوم التواضع وترك الترفع: فإذا شهد العبد ذنوبه وخطاياها أوجب له ذلك ألا يرى لنفسه على أحد فضلاً، ولا له على أحد حقاً، فلا يظن أنه خير مسلم يؤمن بالله ورسوله، وإذا شهد ذلك من نفسه لم ير لها على الناس حقوقاً

(1) انظر مفتاح دار السعادة 297/1.

(بر) مفتاح دار السعادة ص 297-298، وانظر كلاماً جميلاً في هذا المعنى في مدارج السالكين

308-307/1.

من الإكرام، فاستراح هذا في نفسه، وأراح الناس من شكايته وغضبه على الوجود وأهله؛ فما أطيب عيشه، وما أنعم باله؛ فأين هذا ممن لا يزال عاتباً على الخلق، شاكياً ترك قيامهم بحقه، ساخطاً عليهم وهم عليه أسخط؟⁽¹⁾

24- الاشتغال بعيوب النفس، والإمساك عن عيوب الناس: فالذنب يوجب

له الإمساك عن عيوب الناس، والفكر فيها؛ فإنه في شغل بعيوب نفسه، وهذا من أمارات السعادة^(ب).

25- الاستغفار للخطئين: فإذا وقع الذنب من العبد شهد نفسه مثل إخوانه

الخطئين، وشهد أن المصيبة واحدة، وأنهم مشتركون في الحاجة، بل الضرورة إلى مغفرة الله، وعفوه، ورحمته؛ فكما يجب أن يستغفر له أخوه المسلم - كذلك هو أيضاً يجب أن يستغفر لأخيه المسلم^(ت).

هذه بعض الحكم من خلق المعاصي، وتقدير السيئات، يتضح بها شيء من حكمة العليم الحكيم فيما يقدره ويقضيه.

وبعد أن ساق الإمام ابن القيم رحمته الله كلاماً طويلاً نفسياً في الحكم من خلق المعاصي قال في آخره: «فهذه الأثمار ونحوها متى اجتناها العبد من الذنب فهي علامة كونه رحمة في حقه، ومتى اجتنى منه أضدادها، وأوجبت له خلاف

(1) مفتاح دار السعادة 298/1.

(2) مفتاح دار السعادة 298/1.

(3) مفتاح دار السعادة 298/1.

ما ذكرناه فهي والله علامة الشقاوة» () .

الفصل الرابع

الرضا بقدر الله، وحكم ذلك

لسائل أن يسأل فيقول: ما حكم الرضا بقضاء الله؟ وهل نحن مأمورون بالرضا بكل ما يقضيه الله - عز وجل -؟
 الجواب عن ذلك أن يُقال: «نحن غير مأمورين بالرضا بكل ما يقضيه الله ويقدره، ولم يرد بذلك كتاب ولا سنة» () .
 بل إن الأمر فيه تفصيل، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في قصيدته التائية في القدر:

وأما رضانا بالقضاء فإنَّما	أُمرنا بأن نرضى بمثل المصيبة
كسقمٍ وفقرٍ ثم ذلٌّ وغربةٍ	وما كان من مؤذٍ بدون جريمةٍ
فأما الأفاعيل التي كُرِّهت لنا	فلا نصَّ يأتي في رضاها بطاعةٍ
وقد قال قومٌ من أولي العلم لا	بفعل المعاصي والذنوب الكبيرة
وقال فريقٌ: نرتضي بإضافةٍ	ولا نرتضي المقضيَّ أقبحَ خصلةٍ
وقال فريقٌ: نرتضي بإضافةٍ	إليه وما فينا فنلقى بسخطةٍ
كما أنها للرب خلقٌ وأنها	لمخلوقه ليست كفعل الغريزة

() شرح العقيدة الطحاوية ص258، وانظر منهاج السنة 205/3، والاستقامة

فترضى من الوجه الذي هو خلقه ونسخت من وجه اكتساب

قال الشيخ عبدالرحمن بن سعدي رحمته الله في شرح هذه الآيات :

«يعني إذا أورد المورد علينا: أنه يجب الرضا بقضاء الله - يعني والمعاصي من قدر الله - فقد أجاب الشيخ - يعني شيخ الإسلام - بأربعة أجوبة، كل واحد منها كافٍ شافٍ، فكيف إذا اجتمعت؟

❖ **أحدها:** أن الذي أمرنا أن نرضى به: المصائب دون المعائب، فإذا أصبنا بمرض أو فقر، أو نحوهما من حصول مكروه أو فقد محبوب فيجب علينا الصبر، واختلّف في وجوب الرضا، والصحيح استحبابه؛ لأنه لم يثبت ورود الأمر به على وجه الوجوب؛ لتعذره على أكثر النفوس؛ لأن الصبر حسب النفس عن التسخط، واللسان عن الشكوى، والأعضاء عن عملها بمقتضى السخط؛ من نتف الشعر، وشق الجيوب، وحثو التراب على الرؤوس، ونحوها، وذلك واجب مقدور.

أما الرضا الذي هو مع ذلك طمأنينة القلب عند المصيبة، وأن لا يكون فيه تمني أنها ما كانت - فهذا صعب جداً على أكثر الخلق؛ فلهذا لم يوجبه الله، ولا رسوله، وإنما هو من الدرجات العالية، وهو مأمور به أمر استحباب.

وأما الرضا بالذنوب والمعائب، فلم نؤمر بالرضا بها، ولم يأت نصٌ صحيحٌ، أو ضعيفٌ في الأمر بها، فأين هذا من ذلك؟

❖ **الجواب الثاني:** ما قاله طائفة من أهل العلم: أن الله لم يرض لنا أن نكفر، ونعصي؛ فعلينا أن نوافق ربنا في رضاه، وسخطه، قال - تعالى - ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ سورة الزمر: 7. فالدين: موافقة ربنا في كراهة الكفر، والفسوق، والعصيان، مع تركها، وموافقته في محبة الشكر والإيمان، والطاعة لنا مع فعلها.

❖ **الجواب الثالث:** أن القضاء غير المقضي، فنرضى بالقضاء؛ لأنه فعله - تعالى - وأما المقضي، الذي هو فعل العبد فينقسم إلى أقسام كثيرة: الإيمان، والطاعة علينا الرضا بها، والكفر، والمعصية لا يحل لنا الرضا بها، بل علينا أن نكرهها، ونفعل الأسباب التي ترفعها من التوبة، والاستغفار والحسنات الماحية، وإقامة الحد والتعزير على من فعلها، والمباحات مستوية الطرفين.

❖ **الجواب الرابع:** أن الشر والمعاصي تختلف إضافتها، فهي من الله خلقاً وتقديراً وتديراً، وهي من العبد فعلاً وتركاً، فحيث أضيفت إلى الله - قضاءً وقدرًا - نرضى بها من هذا الوجه، وحيث أضيفت إلى العبد - نسخطها، ونسعى بإزالتها بحسب مقدورها.

فهذه الأجوبة عن الأمر بالرضا بالقضاء قد اتضح أنها لا تدل على شيء من

الخاتمة

وبعد هذا التطواف في مباحث القضاء والقدر - هذا إجمال لأهم ما ورد في تلك المباحث ، وذلك من خلال النقاط الآتية :

1- الإيمان بالقدر من أهم مباحث العقيدة ، فهو ركن من أركان الإيمان ، والإيمان به تمام التوحيد ، وكتب السلف الصالح في العقيدة اهتمت به ، وأطنبت في ذكره ، والناس على اختلاف طبقاتهم يشغلهم موضوع القدر؛ لارتباطه بحياتهم اليومية.

2- الإيمان بالقدر أمر فطري ، ومع ذلك فهو أعوصُ أبواب العقيدة ، لدقة مسأله ، وتشعبها ، وكثرة الشبهات المثارة حوله؛ ولهذا لا يمكن أن يفهم إلا بفهم السلف الصالح - أهل السنة والجماعة - ولا يمكن لكل أحد أن يفهمه على وجه التفصيل.

3- القدر هو تقدير الله للكائنات حسبما سبق به علمه ، واقتضته حكمته.

أو : هو علم الله ، وكتابته للأشياء ، ومشيئته وخلقها لها.

() الدرة البهية شرح القصيدة التائية في حل المشكلة القدرية ص 51-53 ، وانظر عقيدة السلف وأصحاب الحديث للصابوني ص 285-286 ، ومنهاج السنة 3/203-209 ، والاستقامة 2/73-76 ، ومدارج السالكين 1/268-269 ، وشرح الطحاوية ص 258 ، وتسليية أهل المصائب ص 152-161 ، وانظر مختصر الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية ص 124-125 ، والمنتقى من فرائد الفوائد لابن عثيمين 109.

- 4- الحديث عن القدر لا يُمنع بإطلاق، ولا يُفتح بإطلاق، بل إن الأمر فيه تفصيل، فإن كان الحديث عن القدر بالمنهج العلمي الصحيح المعتمد على الكتاب والسنة، وكان الحديث عنه مراداً به الوصول إلى الحق - فإنه لا يمنع ولا يُنهي عنه، بل قد يجب.
- وإن كان الحديث عنه خوضاً بالباطل، واعتماداً في فهمه على العقل المجرد أو كان للاعتراض أو التنازع أو التعنت فإنه لا يجوز البتة.
- 5- الإيمان بالقدر على الوجه الصحيح يثمر ثمرات جليلة على الأفراد والمجتمعات في الدنيا والآخرة.
- 6- الإيمان بالقدر دلل عليه الكتاب، والسنة، والإجماع، والفطرة، والعقل، والحس.
- 7- الإيمان بالقدر يقوم على أربعة أركان تسمى: مراتب القدر وهي العلم، والكتابة، والمشية، والخلق.
- 8- أفعال العباد داخلية في عموم خلقه - عز وجل - ولا يخرجها عن ذلك العموم شيء.
- 9- الواجب على العبد في باب القدر أن يؤمن بقضاء الله وقدره، ويؤمن بشرع الله وأمره ونهيه، فعليه تصديق الخبر وطاعة الأمر، فإذا أحسن حمد الله - تعالى - وإذا أساء استغفر الله - تعالى - وعلم أن ذلك بقدر الله، فهذا هو الواجب على العبد، ولا يلزم كل أحدٍ أن يعرف مباحث القدر على وجه التفصيل، كما هو مقرر عند أهل السنة والجماعة؛ فهم لا يوجبون على العاجز ما يوجبون على القادر.

- 11- الإيمان بالقدر لا ينافي أن يكون للعبد مشيئة في أفعاله الاختيارية، وأن يكون له قدرة عليها، بل له مشيئة وقدرة، وهما تابعتان لمشيئة الله وقدرته، واقعتان بها.
- 12- فعل الأسباب لا ينافي الإيمان بالقضاء والقدر، بل إن ذلك من تمام الإيمان به.
- 13- الاحتجاج بالقدر إنما يسوغ عند المصائب لا المعائب.
- 14- الإرادة الربانية تنقسم إلى قسمين:
- 1- كونية قدرية: وهي مرادفة للمشيئة ولا يخرج عن مرادها شيء أبداً ولا بد أن تقع.
- 2- شرعية دينية: وتتضمن محبة الرب ورضاه، ولا يلزم وقوعها، فقد تقع وقد لا تقع.
- 15- الشر لا ينسب إلى الله - عز وجل - فهو منزّه عن الشر، ولا يفعل إلا الخير، والقدر من حيث نسبته إلى الله لا شرف فيه بوجه من الوجوه؛ فإنه علم الله، وكتابته، ومشيئته، وخلقته، وذلك خيرٌ محضٌ، فالشر إنما هو في المقضي لا في القضاء، وفي مفعولات الله لا في أفعاله - عز وجل -.
- 16- قد يريد الله أمراً، ويشاؤه، وفي الوقت نفسه لا يحبه؛ لأن المراد نوعان:
- 1- مراد لنفسه إرادة الغايات مثل خلق جبريل - عليه السلام -.
- 2- مراد لغيره: فهو وسيلة إلى غيره مثل خلق إبليس، فهو مكروه لله من حيث نفسه وذاته، مراد له - عز وجل - من حيث قضاؤه وإيصاله إلى مراده، فهو سبب لحصول محابٍ كثيرة، فيجتمع الأمران بَعْضُهُ له، وإرادته له، ولا

يتنافيان.

17- لله - عز وجل - الحكمة البالغة في كل فعل من أفعاله، وقد تظهر لنا الحكمة، وقد تخفى، ولا يلزم أن ندرك حكمته - عز وجل - في كل شيء، أو أن يدرك ذلك كل أحد.

18- وجوب الرضا بقضاء الله - عز وجل - فيه تفصيل؛ فإن كان ما قُضي وقُدِّر مرضياً لله محبوباً له - كالإيمان وسائر الطاعات - رضينا به، وإن كان غير مرضي لله ولا محبوب له - كالمعاصي والكفر - فلا نرضى به، فعلينا موافقة ربنا في رضاه وفي سخطه؛ فالدين موافقة ربنا في كراهة الكفر والفسوق والعصيان مع تركها، وموافقته في محبة الشكر والطاعة مع فعلها.

أو يقال: نرضى بالقضاء الذي هو فعل الله - تعالى -.

وأما المقضي الذي هو فعل العبد - ففيه تفصيل؛ فإن كان مرضياً لله رضينا به، وإن كان غير مرضي لله لم نرض به.

20- الإنسان مخير باعتبار ومسير باعتبار؛ فهو مخير باعتبار أن له قدرة ومشية واختياراً، ومسير باعتبار أنه في جميع أفعاله داخل في القدر راجع إليه، ولكونه لا يخرج عما قدره الله له.

21- ورد في البحث ذكر لبعض الأخطاء التي تقع في باب القضاء والقدر.

23- ورد في البحث ذكر لبعض أقوال الطوائف والملل في القدر.

هذا ملخص ما ورد في هذا البحث، وفي الختام أسأل الله - تبارك وتعالى - أن ينفع به، وأن يجعله خالصاً لوجهه؛ إنه على ذلك قدير، وبالإجابة جدير، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً.

الفهارس

- أ- فهرس الآيات القرآنية
- ب- فهرس الأحاديث والآثار
- ج- فهرس قوافي الأشعار
- د- فهرس الأعلام المترجم لهم
- ز- فهرس الموضوعات

فهرس الآيات القرآنية

الصفحة	آيات سورة البقرة
24	﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ 197
30	﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ ﴾ 200
86	﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ ﴾ 213
86	﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ﴾ 269
	آيات سورة النساء
30	﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ ﴾ 103
30	﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ ... الآية ﴾ 165
	آيات سورة الأنعام
32	﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ 91
	آيات سورة الأنفال
40	﴿ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ 42
24	﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ... الآية ﴾ 60
71	﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ ... الآية ﴾ 68
	آيات سورة الكهف
41	﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا ... الآية ﴾ 82
	آيات سورة طه
40	﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾ 40
30	﴿ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ﴾ 72

آيات سورة الأنبياء

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ 22
3

آيات سورة غافر

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ 60
24

آيات سورة فصلت

﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ 10
33

آيات سورة الملك

﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ 10
74

﴿ فَاْمَشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ 15
32

آيات سورة المدثر

﴿ لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾ 43
4

﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ ... الآية ﴾ 31
33

﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ 37
32

فهرس الأحاديث والآثار

- 18 - أبهذا أمرتم؟ أم بهذا أرسلت إليكم؟ ...
- 17 - إذا ذكر أصحابي فأمسكوا ...
- 16 - رأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه ...
- 16 - اعملوا فكل ميسر
- 76 - إن العبد ليعمل الخطيئة فلا تزال نصب...
- 6086 - إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ...
- 43 - أن النبي ﷺ كان يثني على ربه بتنزيهه ...
- 54 - عجباً لأمر المؤمن؛ إن أمره كله له خير ...
- 15 - فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم
- 5824 - ما من شيء يصيب المؤمن، حتى الشوكة تصيبه ...
- 25 - وأما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة
- يا رسول الله بين لنا ديننا كأننا خلقنا الآن، فيما العمل
- اليوم؟ ...
- 18 - أبهذا أمرتم؟ أم بهذا أرسلت إليكم؟ ...
- 17 - إذا ذكر أصحابي فأمسكوا ...
- 16 - رأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه ...
- 16 - اعملوا فكل ميسر
- 760 - إن العبد ليعمل الخطيئة فلا تزال نصب...

فهرس الأعلام المترجم لهم

- إبراهيم بن سيار - النظام -
- أحمد بن عبد الحلیم - ابن تیمیة -
- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني
- أحمد بن فارس
- أحمد بن يحيى - ثعلب -
- أرسطو
- إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني
- إسماعيل بن عمر بن كثير
- أفلاطون
- الجعد بن درهم
- الجهم بن صفوان
- الحسن البصري
- الحسن بن عبد الله بن سهل - أبو هلال العسكري -
- الحسين بن عبد الله بن علي بن سينا
- الحسين بن محمد بن المفضل - الراغب الأصفهاني -
- الحسين بن مسعود بن محمد - البغوي -
- أوغسطين
- باروخ سبنيوزا
- بكر أبو زيد

- بكر بن محمد بن حبيب - المازني -
- توماس ألاكويني
- ديل كارنيجي
- رينيه ديكارت
- سارتر
- سعيد بن جبير
- سويد بن أبي كاهل
- شوبنهاور
- طاووس بن كيسان
- عائذ الله بن حصن - المثقّب العبدى -
- عبد الجبار الهمداني
- عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ
- عبدالرحمن بن محمد الأوزاعي
- عبدالرحمن بن محمد الدوسري
- عبدالرحمن بن ناصر السعدي
- عبدالسلام بن محمد الجبّائي - البهشمي -
- عبدالقاهر البغدادي
- عبدالكريم الجيلي
- عبدالملك بن محمد الثعالبي
- عثمان بن بشر
- عكرمة
- علقمة بن قيس
- علي بن أحمد بن سعيد بن حزم
- علي بن إسماعيل - أبو الحسن الأشعري -

- علي بن عقيل - أبو الوفاء بن عقيل -
- علي بن محمد الجرجاني
- هانئ بن مسعود الشيباني
- هشام بن الحكم الشيباني
- هيجل
- واصل بن عطاء
- يحيى بن شرف النووي
- يحيى بن معاذ الرازي
- يوسف بن عبدالله - ابن عبدالبر -

فهرس الموضوعات

1	المقدمة
3	- أهمية موضوع القدر
5	- أسباب البحث في القدر
6	- الدراسات السابقة
7	- خطة البحث
7	- منهج البحث
19	تمهيد: مسألة في حكم الحديث عن القدر
18	الباب الأول: مسائل وإشكالات حول القدر
19	الفصل الأول: الإيمان بالقدر ومشية العبد واختياره
22	الفصل الثاني: فعل الأسباب والإيمان بالقضاء والقدر
	الفصل الثالث: الاحتجاج بالقدر على فعل المحرمات وترك
27	الواجبات
34	- الصورة الجائزة المسوغة للاحتجاج بالقدر
35	الباب الثاني: الحكمة والتعليل في أفعال الله
36	تمهيد: في خلاصة القول في الحكمة والتعليل
38	الفصل الأول: نسبة الشر إلى الله - تعالى - وحكم ذلك

- 44 **الفصل الثاني: الحكمة من إرادة الله لما لا يحبه**
- الفصل الثاني: الحكمة من خلق إبليس، وخلق المصائب والآلام**
- 46 **المبحث الأول: خلق إبليس والحكمة من ذلك:**
- 1- أن يظهر للعباد قدرةُ الرب - تعالى - على خلق المتضادات والمتقابلات
- 47
- 2- أن يُكَمِّلَ الله لأوليائه مراتب العبودية
- 50
- 3- حصول الابتلاء
- 51
- 4- ظهور آثار أسمائه - تعالى - ومقتضياتها، ومتعلقاتها
- 52
- 5- استخراج ما في طبائع البشر من الخير والشر
- 52
- 6- ظهور كثير من آيات الله وعجائب صنعه
- 52
- المبحث الثاني: خلق المصائب والآلام، والحكمة من ذلك:**
- 52
- 1- استخراج عبودية الضراء وهي الصبر
- 53
- 2- طهارة القلب، والخلاص من الخصال القبيحة
- 53
- 3- تقوية المؤمن
- 53
- 4- النظر إلى قهر الربوبية وذل العبودية
- 54
- 5- حصول الإخلاص في الدعاء، وصدق الإنابة في
- 54

التوبة

- 54 6- إيقاظ المبتلى من غفلته
- 55 7- معرفة قدر العافية
- 55 8- أن من الآلام ما قد يكون سبباً للصحة
- 55 9- حصول رحمة أهل البلاء
- 55 10- حصول الصلاة من الله والرحمة والهداية
- 11- حصول الأجر، وكتابة الحسنات وحط
- 56 الخطيئات
- 56 12- العلم بحقارة الدنيا وهوانها
- 13- أن اختيار الله للعبد خير من اختيار العبد
- 56 لنفسه
- 56 14- أن الإنسان لا يعلم عاقبة أمره
- 57 15- الدخول في زمرة المحبوبين لله - عز وجل -
- 57 16- أن المكروه قد يأتي بالمحبوب والعكس

- 58 الفصل الثالث: الحكمة من خلق المعاصي وتقديرها
- 57 الفصل الرابع: الرضا بقدر الله، وحكم ذلك
- 78 **الخاتمة**
- 81 **الفهارس**
- 82 فهرس الآيات القرآنية
- 85 فهرس الأحاديث والآثار
- 86 فهرس الأعلام المترجم لهم
- 88 فهرس الموضوعات